

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد:

الكتاب الذي بين يديك - أخي القارئ - هو تقرير من محاضرات المفكر الإسلامي الكبير آية الله الأستاذ الشهيد مطهري، ألقاها في أحد مساجد العاصمة الإيرانية طهران، عام 1354 هـ. ش 1975م أي قبل ثلاثة أعوام تقريباً من انتصار الثورة الإسلامية، وفي قمة تصاعد الإرهاب الشاهنشاهي الذي كان يخنق إيران في ذلك الوقت. والموضوع الذي تناوله الأستاذ الشيخ في هذه المحاضرات الثلاث هو بحث مفهومي الهجرة والجهاد في الإسلام، وقد ارتكز منهجه في البحث على الخطوط العريضة التالية:

- 1- بيان المفهومين وبحث أهمية دورهما ضمن أحكام الإسلام، وتوضيح التفسير المعنوي لهما.
- 2- طرح العديد من المصاديق العملية لهما، وتوضيح الشروط الموضوعية التي يفرض الإسلام على أتباعه الهجرة والجهاد عند تحققهما.
- 3- مواجهة الشبهات التي طرحت على كلا الموضوعين. وقد ركز الباحث بصورة خاصة على مواجهة محاولة إلغاء الهجرة والجهاد بالمعنى الشرعي الأصلي، عبر التذرع بالتفسير المعنوي لهما، هذه هي من أبرز حجج تيار الانعزال عن العمل الاجتماعي الذي يبرر تقاعسه وانعزاله بطرح التفسير المعنوي للهجرة والجهاد.
- 4- كما طرح الأستاذ الشهيد حكم الهجرة، كرد شرعي على ما يتحجج به الكثير لتبرير انحرافاتهم عن الإسلام بالاستناد إلى عذر (الظروف القاهرة للمحيط المعاش).

وقد عمدنا إلى ترجمة هذه المحاضرات لأننا (حسب اطلاعنا) لم نجد في المكتبة الإسلامية العربية كتاباً يبحث في هذا الموضوع بصورة مستقلة، ويقرن الهجرة بالجهاد وي طرحهما معاً انتهاجاً للمنطق القرآني الذي يذكرهما معاً في أكثر الموارد، كما أن البحث يوضح جيداً، الحكم الشرعي الثابت تجاههما وخاصة تجاه حكم الهجرة، وهذا موضوع شرعي مهم للغاية، وذو أثر تربوي كبير، ولكن قلما تناوله الباحثون.

وإضافة إلى أهمية الموضوع ومكانة الباحث العلمية فقد شجعنا على ترجمة هذا الكتاب الأسلوب الواضح الذي اعتمده الأستاذ الشهيد في بحثه، وهو أسلوب طرح المفهوم الإسلامي من خلال الواقع العملي، وهذا الأسلوب من الناحية التربوية أجدى نفعاً من منهج التجريد النظري الأكاديمي، بل إن هذا الأسلوب هو ما اعتمده القرآن الكريم في طرحه التربوي.

وفيما يتعلق بالترجمة ذاتها نلفت انتباه القارئ الكريم إلى النقاط التالية:

- 1- إننا حرصنا على الالتزام بنقل النص حرفياً إلى العربية ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً ولم نتدخل في النص أصلاً، اللهم إلا فيما يتعلق بربط الجمل وصياغتها وفقاً لطبيعة اللغة العربية.
- 2- قد يجد القارئ أحياناً تكراراً لبعض النقاط الرئيسية في هذه المحاضرات، وهذا طبيعي إذا لاحظنا مقتضيات المنهج العام للمحاضرة، وقد فكرنا بادئ ذي بدء، في حذف المكررات إلا أننا عدلنا عن ذلك، بعد أن وجدناه يؤثر سلبياً على وضوح الأفكار المطروحة، بل ولاحظنا أن الشيخ الأستاذ عندما يكرر بعض النقاط في أكثر من مكان، يخرج عادة إما بنتائج أكثر عمقاً واتساعاً مما سبق له الخروج به أولاً، وإما بنتائج جديدة أصلاً.
- 3- والشيخ الأستاذ يختم كل محاضرة، على طريقة المجالس الحسينية بذكر طرف من واقعة الطف وما تجلى فيها من أسمى صور البطولة والفداء والإياء، وقد أثرنا إبقاءها لما فيها من فائدة تربوية كبرى وعبر عظيمة، وجدير بالذكر أن مجالس الحسين (ع) كانت ولا زالت أهم عوامل الانتصارات التي حققتها وتحققها الثورة الإسلامية في إيران.

المحاضرة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين بارئ الخلق أجمعين والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله وحبيبه وصفيه وحافظ سره ومبلغ رسالاته سيدنا ونبينا أبي القاسم محمد (ص) وعلى آله الطيبين الطاهرين المعصومين.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم (وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا) (النساء: 100).

الهجرة والجهاد هما الركنان الأساسيان اللذان يستند إليهما الإسلام من الناحية الاجتماعية، وقد حرص القرآن الكريم على إحاطتهما بقدرسية خاصة كلما تحدث عنهما، كما أنه عظم وقدس درجة المهاجرين والمجاهدين أكبر تعظيم وتقديس.

الهجرة تعني التخلي عن البيت والأهل والوطن، والابتعاد عنها والتوجه إلى ديار الإيمان حفظاً للدين من الضياع. وفي الكثير من الآيات القرآنية نرى كلمتي الهجرة والجهاد قد ذكرتا معاً (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا) (الأنفال: 74).

في الصدر الأول للإسلام، كان المسلمون ينقسمون إلى قسمين هما: المهاجرون والأنصار، فالأنصار هم سكان المدينة - يثرب - الذين آووا ونصروا، والمهاجرون هم الذين هجروا ديارهم وقدموا إلى المدينة إنقاذاً لدينهم.

والهجرة هي كالجهاد، حكم غير ثابت في الشرع الإسلامي ولكنه من أركانه الأساسية وأحكامه الحية، بمعنى أن من المحتمل أن تطرأ ظروف تصبح معها الهجرة واجباً شرعياً وفرضاً يجب على المسلم أدائه.

ودفعاً لوقوع بعض الاشتباكات والتناقضات في فهم حكمي الجهاد والهجرة، نتعرض هنا لبحث هذا الموضوع بشيء من التفصيل.

لقد ورد للهجرة وكذلك للجهاد تفسير آخر غير ما تقدم، فقد فسرت الهجرة بهجر المعاصي والذنوب والابتعاد عنها. إذن هو نصيب هذا التفسير من الصحة يا ترى؟! وهل أن من تلوث نفسه بالذنوب ثم تاب وأصلح واغتسل بماء التوبة المطهر سيصبح بذلك مهاجراً لأنه هجر الذنوب وابتعد عنها؟! لو أخذنا بهذا التفسير لأصبح جميع التائبين في العالم مهاجرين، لأنهم هجروا الذنوب والمعاصي ونأوا عنها، أمثال فضيل بن عياض وبشر الحافي وغيرهما كثير.

فضيل بن عياض كان في بداية أمره سارقاً، ثم تغيرت حاله، فهجّر جميع الذنوب وتاب إلى الله توبة نصوحاً، وأصبح بعدها من العظماء، فهو لم يتحول إلى رجل متق وحسب، بل أصبح أيضاً معلماً ومربياً للعديد من الناس، في حين كان في مطلع حياته لصاً وقاطع طريق وشرساً وموذيماً حتى ضج الناس منه ومن شره وأذاه، فضيل بن عياض هذا كان يهيم مرة كعادته بسرقة بيت، وعندما تسلق الجدار وهم بالنزول إلى داخل البيت رأى رجلاً زاهداً عابداً يقوم الليل، يصلي صلاته ويدعو ويقرأ القرآن، فسمع فضيل الرجل وهو يقرأ القرآن بصوت خاشع حزين، وكان أول ما طرق سمعه من قراءة الرجل هو قوله تعالى: (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ) (الحديد: 16).

فضيل الذي سمع هذه الآية وهو فوق الجدار، أحس وكأن الآية أوحيت إليه هو، تخاطبه هو، فالآية قد هزته بعنف، حتى قال: «.. اللهم بلى .. اللهم بلى.. لقد آن الأوان، وهذا هو»، فنزل من الجدار، وهجر منذ ذلك الحين كل الذنوب، فلا سرقة بعدها، ولا خمر ولا ميسر ولا غيرها من باقي الذنوب التي كان مبتلى بها، ابتعد عنها بكل جهده... أرجع الحقوق التي كان قد اغتصبها إلى أصحابها، وأدى ما عليه من حقوق الله، وجبر ما كان قد فات منه.

إذن.. ففضيل هذا مهاجر أيضاً لأنه هجر السيئات وابتعد عنها.

وفي عصر الإمام الكاظم (ع) كان في بغداد رجل معروف يقال له بشر، وكان ممن يشار إليه بالبنان، وحدث يوماً أن كان الإمام الكاظم (ع) ماراً من أمام بيت بشر، فاتفق أن فتحت جارية باب الدار لإلقاء بعض الفضلات (قمامة) وحين رمت بها في

الطريق سألها الإمام(ع) قائلاً: يا جارية! هل صاحب الدار حر أم عبد؟! فأجابته الجارية وهي مستغربة من سؤاله هذا وبشر رجل معروف بين الناس وقالت: بل هو حر. فقال الإمام(ع) صدقت لو كان عبداً لخاف من مولاه([1]).

الإمام(ع) قال هذه الكلمة وانصرف، فعادت الجارية إلى الدار وكان بشر جالساً إلى مائدة الخمر، فسألها: ما الذي أبطأك؟ فنقلت له ما دار بينها وبين الإمام(ع)، وسمع ما نقلته من قول الإمام(ع): «صدقت، لو كان عبداً لخاف من مولاه» فهزهزاً عنيفاً أيقظه من غفلته، وأيقظه من نومته نومة الغفلة عن الله، ثم سأل بشر الجارية عن الوجهة التي توجه إليها الإمام، فأخبرته فانطلق يعدو خلفه، حتى أنه نسي أن ينتعل حذاءه، في الطريق كان يحدث نفسه بأن هذا الرجل هو الإمام موسى بن جعفر(ع)، وفعلأذهب إلى منزل الإمام، فتأب على يده واعتذر وبكى ثم هوى على يدي وقدمي الإمام يقبلها وهو يقول: سيدي أريد من هذه الساعة أن أصبح عبداً ولكن عبداً لله، لا أريد هذه الحرية المذلة التي تأسر الإنسانية في، وتطلق العنان للشهوة الحيوانية، لا أريد حرية السعي وراء الجاه والمنصب، لا أريد حرية الخوض في مستنقع الذنوب وأغوى أسيراً لها، لا أريد أن تؤسر في الفطرة السليمة والعقل السليم، من هذه الساعة أريد أن أصبح عبداً لله والله وحده، حراً تجاه غيره، وتأب بشر على يد الإمام الكاظم(ع) ومنذ تلك اللحظة هجر الذنوب ونأى عنها وأتلف كل وسائل الحرام، وأقبل على الطاعة والعبادة. إذن، بشر هذا هو مهاجر أيضاً لأن «المهاجر من هجر السيئات».

ولهذا المنحى في تفسير الهجرة، شبيه في باب الجهاد أيضاً حيث أن «المجاهد من جاهد نفسه»([2]) والمجاهد هو من يجاهد النفس الأمارة بالسوء وأهواءها الداخلية، ومعروف أن الصراع الداخلي موجود باستمرار، قائم بين النفس وأهوانها من جهة والعقل من جهة أخرى.

يقول أمير المؤمنين الإمام علي(ع): «أشجع الناس من غلب هواه»([3])2، والشجاعة الحقيقية توضحها الحادثة التالية التي وقعت في زمن الرسول الأعظم(ص)، الرسول(ص) إذ كان ماراً في إحدى طرق المدينة، رأى عدداً من الفتية يتبارون في رفع صخرة «أيهم يرفع صخرة أكبر مثلاً» النبي الكريم أراد أن يستفيد من هذا الموقف للوعظ والتوجيه، فاقترب من الفتية وقال لهم: «ألا تريدون أن أكون حكماً بينكم أقضي بينكم الأقوى؟»، فقالوا: بلى يا رسول الله وأي خير منك حكماً، فقال(ص): «إذن فاستمعوا لحكمي: لا حاجة بكم إلى لأرفع الصخرة لأحكم في أيكم الأقوى. أقوام من منع نفسه عن الحرام، وحجزها عن ارتكاب المعاصي وقد مالت إليها، أقوام من لم تغلبه نفسه وأهواؤها فتوقعه في المعصية». إذن فالمجاهد هو من جاهد نفسه، والشجاع من غلب هواه.

هناك مثال آخر يوضح الشجاعة الحقيقية نستخلصه من القصة المعروفة التي حدثت لـ «بوراي ولي» وقد كان هذا من كبار أبطال المصارعة في العالم، وكان يعتبر نموذجاً للبطولة والرجولة والعرفان في آن واحد، يروى أن هذا البطل كان قد سافر مرة إلى إحدى المدن للتباري مع بطلها في المصارعة وعين موعد للمباراة، وذلك في ليلة الجمعة، وخلال تجواله في تلك المدينة،

شاهد «بوراي ولي» امرأة عجوزاً كانت توزع الحلوى على الناس وتطلب منهم الدعاء، ولم تكن تعرف «بوراي ولي» من قبل، فقدمت له الحلوى وسألته الدعاء، ولكنه سألها عن حاجتها ما هي؟ فقالت: «إن ابني هو بطل مدينتنا في المصارعة، وقد جاءنا منافس له من مدينة أخرى لمنزلته، وسيلتقيان خلال الأيام القليلة القادمة، وأنا أخشى أن يخسر ولدي المباراة، فخسارته لا تعني انتكاسة شخصية له وحسب، بل تعني انقطاع مورد رزقنا الوحيد الذي يأتينا من الراتب الذي يقدم لولدي في هذه اللعبة، ولذلك فإن فشله في المباراة يعتبر تدميراً لحياتنا، وأنا امرأة عجوز لا أقوى على شيء»، عندما سمع بوراي ولي حديث المرأة، قال لها: «اطمني سادعو لك» ثم استغرق هذا الرجل في التفكير مع نفسه محدثاً إياها عما سيفعله في المباراة «هل أصرعه إذا كنت أقوى منه أم لا؟» هنا تذكر هذا البطل مقولة إن: «أشجع الناس من غلب هواه» وفي اليوم المقرر للمباراة، صعد إلى الحلبة فوجد منافسه أضعف منه كثيراً ويستطيع أن يطرحه أرضاً بحركة واحدة، لكنه ومن أجل أن يجعل المباراة تجري وكأنها حقيقة - كي لا يفهم المشاهدون القرار الذي اتخذته بعدم التغلب عليه - راح يكثر من الدوران ويطيّل المصاولة والمجاوله مع منافسه ثم مكّنه بعد ذلك من أن يصرعه، وهنا يذكرون عن هذا البطل، أنه وفي تلك اللحظة التي صرع فيها، أحس وكأن قلبه انفتح لله وكأنه يرى بقلبه عالم الملكوت، هذا الرجل - لأنه جاهد نفسه وانتصر عليها في تلك اللحظة - قد أصبح من أولياء الله، لماذا؟ لأن: «المجاهد من جاهد نفسه» ولأن: «أشجع الناس من غلب هواه» ولأنه أظهر شجاعة فاق بها كل الأبطال([4]).

وأعظم من هذه الحادثة، قصة الإمام علي(ع) مع عمرو بن عبد ود، هذا الطل الذي كان يوصف بفارس ليليل([5])، الفارس الذي يعدل ألفاً، في معركة الخندق كان عسكر المسلمين من جهة من الخندق وعسكر العدو في الجهة الثانية منه، بحيث لم يكن باستطاعة العدو أن يعبر إلى جهة المسلمين ورغم ذلك فقد تمكن نفر من الكفار - ومن بينهم عمرو بن عبد ورد - من عبور الخندق بطريقة أو بأخرى وأخذ عمرو يجول بفرسه وهو يصرخ: هل من مبارز؟!... فلم يجروا أي من المسلمين على الخروج وهم يعرفون من هو عمرو

وماذا تعني مبارزته، فقال الرسول(ص): من له؟ فسكت الجميع إلا علياً إذ نهض وقال: أنا له يا نبي الله، فقال(ص): إنه عمرو إجلس، فنادى عمرو ثانية: ألا من رجل؟ ثم أخذ يؤنبهم ويقول: أين جنتكم التي تزعمون أن من قتل منكم دخلها؟ فلم يجب إلا علياً إذ نهض وقال: أنا له يا رسول الله، فأجابه الرسول بمثل ما أجابه في المرة الأولى، فنادى عمرو ثالثة فلم يجبه أحد أيضاً غير الإمام علي إذ نهض وقال: يا رسول الله أنا له، فقال(ص): إنه عمرو، فقال(ع) وإن كان عمرأ، فاستأذن رسول الله فأذن له وخرج(ع) إلى عمرو. وخلاصة الحدث، أن علياً(ع) يطرح بطل الأبطال على الأرض ويجلس على صدره ليحتز رأسه وهنا بصق عمرو في وجهه علي(ع)، فيقوم الإمام(ع) من فوق صدره، ويأخذ بالسير بهدوء بالقرب منه وبعد فترة يعود فيجلس مرة أخرى على صدره ويهم بقطع رأسه فيسأله عمر عن سبب قيامه(ع) أولاً ثم عودته ثانية؟ فماذا كان جواب الإمام(ع)؟! لقد غضب الإمام عندما بصق اللعين في وجهه الشريف، وهنا تركه خشية من أنه إن قتله وهو غاضب فقد يحتمل أن يكون ذلك غضباً لنفسه لا لله، فقام عنه حتى هدا(ع) وعاد فقتله الله تعالى لا لغيره([6]).

وخلاصة ما تقدم أن المعنى الآخر للهجرة هو ترك الذنوب والمعاصي، والمعنى الآخر للجهد هو مجاهدة النفس وأهوائها، فهل - يا ترى - هذا التفسير صحيح أم لا...؟! الجواب هو أنه صحيح بحد ذاته ولكن قد أسيء فهمه وفهم بصورة خاطئة، فمقولتنا: «المهاجر من هجر السينات، والمجاهد من جاهد نفسه» وارتدتان في أحاديث المعصومين(ع) بل إن النبي الأكرم(ص) يصف جهاد النفس بأنه «الجهاد الأكبر»، لكن الخطأ في الفهم والانحراف في التفسير، قد وقع عندما لجأ البعض إلى إلغاء المعنى الأول للهجرة والجهاد وذلك باحتجاجهم في أن معنى الهجرة ترك الذنوب وأن معنى الجهاد مجاهدة النفس فلا حاجة إذن لأن نترك الأهل والديار عند اقتضاء الضرورة، ونغرب في البلدان، بل بدلاً من ذلك نجلس في بيوتنا ونهجر الذنوب فنصبح بذلك مهاجرين، ويقول البعض الآخر: إنه ما دام الجهاد هو مجاهدة النفس، إذن فلا ضرورة للسير إلى محاربة أعداء الإسلام، وبدلاً من أن نتحمل مصاعب ذلك، نجلس في بيوتنا ونشغل في مجاهدة أنفسنا وهذا هو - في نظرهم - الجهاد في سبيل الله بل هو أعظم من سابقه لأنه الجهاد الأكبر وذلك هو الجهاد الأصغر.

إذن فقد اتخذ تفسير الهجرة بترك الذنوب ذريعة لإلغاء الهجرة بالمعنى الأول واتخذ تفسير الجهاد بجهد النفس ذريعة لإلغاء الجهاد بالمعنى الأول، وهذا هو الانحراف في الفهم، لأن في الإسلام هجرتين لا هجرة واحدة، ونوعين من الجهاد لا نوعاً واحداً، وإلغاء أي من الهجرتين - نوعي الهجرة - بالتذرع بالنوع الآخر، أو إلغاء أي من نوعي الجهاد بالتذرع بالآخر، كل ذلك يعني انحرافاً عن الإسلام وتعاليمه.

إن قادتنا الدينيين - الرسول الأكرم، الإمام علي(ع) والأنمة الأطهار - كانوا جميعاً مهاجرين في سبيل الله، بكلتا الهجرتين، وكانوا(ع) مجاهدين في سبيل الله بكل الجهادين. وإذا نظرنا إلى الموضوع من الناحية المعنوية، وجدنا هناك درجات لا يمكن الوصول إليها إلا عبر المرور بكلتا الهجرتين أو الجهادين، فلا يمكن بحال أن يحصل الإنسان على درجة المجاهد وهو لم ير ساحة الجهاد أصلاً، كما لا يمكن له أن يحصل على درجة المهاجر وهو لم يهاجر بالمعنى الظاهر - المعنى الأول - وهذه هي سنة الله في خلقه للإنسان، إذ جعل نضجه وتكامله ورفقه مرهونة باجتياز دورات تربوية خاصة، فالزواج مثلاً يعبر من وجهة نظر الإسلام الزواج عملاً مقدساً؟!... إن سر الاهتمام بهذا الأمر هو تأثيره المهم في تربية روح الإنسان، فلروح الإنسان خاصية التكامل والرفق والنضج لا يمكن أن تحصل عليها إلا بالزواج، أي لو ظل الرجل عزباً إلى آخر عمره أو ظلت المرأة عزباء إلى آخر عمرها، فسيبقى هناك نقص في تكامل روحيهما، سببه فقدان الأثر التربوي للزواج ولا يسد ذلك النقص حتى لو أنهما قضيا العمر في العبادة، والرياضات ومجاهدة النفس، فالإسلام اعتبر الزواج سنة من سننه، وأحد أسرار ذلك التأثير الذي يتركه الزواج في تربية الإنسان ينحصر أثره في موقعه الخاص به، ولا يمكن لأي عامل آخر أن يحل محله إذا فقد ويحدث نفس تأثيره التربوي، كما أنه لن يستطيع أن يحل محل أي من العوامل الأخرى.. والهجرة والجهاد هما أيضاً من العوامل التي تشترك في تربية الإنسان وتكامله ولذلك فلا يمكن أن يحل محلهما أي من العوامل الأخرى. فالجهاد مع النفس له موقعه، وكذلك الهجرة عن السينات، لكن الهجرة العملية عامل تربوي لا يمكن للهجرة بالمعنى الثاني - الهجرة عن السينات - أن تحل محله. وكذلك حال الجهاد والقتال ضد أعداء الله فلا يمكن أن يحل محله جهاد النفس والعكس صحيح أيضاً، فكلاهما يضعهما الإسلام في صف واحد ويعتبرهما من عوامل التربية الإسلامية.

وهنا يبرز سؤال مهم يقول: إن الظروف الموضوعية التي يعيها الفرد المسلم متباينة ولا تقتضي جميعها من الفرد المسلم أن يهاجر أو يجاهد أعداء الله فماذا سيكون موقفه آنذاك خاصة بعد أن عرفنا الأثر التربوي المهم للهجرة والجهاد؟! يجيب الرسول الأكرم(ص) على هذا التساؤل بأن واجب الفرد المسلم في هذه الحال، هو أن يكون في قلبه عزم صادق ونية مخصصة بأن يهاجر أو يجاهد أعداء الله، في أي وقت تتطلب الظروف الموضوعية الهجرة أو الجهاد، ومع توفر هذه النية المخصصة والعزم الصادق لدى الفرد المسلم، يصل بذلك إلى درجة المهاجرين والمجاهدين حقاً، وهذا الجواب النبوي يمكن استخلاصه من قوله(ص): «من لم يغزو ولم يحدث نفسه بغزو، مات على شعبة من النفاق».

والقرآن الكريم يقول: (لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا) (النساء: 95).

ونلاحظ من النص القرآني أنه لا يدخل المتخلفين ضمن حديثه عن القاعدين فهم غير منظور إليهم هنا، وإنما حديثه هنا، عن القاعدين بعذر شرعي (هو وجود من به الكفاية من المجاهدين) فيقول: إن هؤلاء المجاهدين هم أعلى درجة وفضلاً وأجراً من القاعدين بعذر شرعي هو وجود العدد الكافي من المجاهدين، ولكن وفي نفس الوقت يؤكد النص أن هذا التفصيل لا يشمل - أولي الضرر - من القاعدين أي القادرين على الجهاد والمعدورين بسبب الأمراض المختلفة التي تعوقهم عن الجهاد، - كفاقي البصر، والمشلولين عن الحركة والمرضى الذين أقعدهم المرض فلا ينفي القرآن الكريم أن هؤلاء فضلاً، ومن الممكن أن يصلوا إلى درجة المجاهدين، بل ويسبقوا الآخرين في ذلك، لو كان في قلوبهم عزم صادق ونية حقيقية، بل لو زالت عنهم تلك العوائق لذهبوا إلى الجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم. وهذه القاعدة صحيحة عند توفر شروطها.

قال رجل لأمير المؤمنين الإمام علي(ع) وهو في طريق عودته من صفين(71): «يا أمير المؤمنين إن لي أخاً كم تمنيت أن يحضر معنا صفين في معسكرك فينال فضل صحبتك» فماذا كان جواب الإمام علي(ع)؟! لقد سأل (ع) الرجل عن نية أخيه ما هي؟ وماذا في قلبه؟ وعلام عزمه؟ هل كان لديه عذر منعه من الحضور أم لم يكن لديه عذر؟! ثم يحدد الإمام(ع) الأجوبة الدقيقة على كل تلك الاحتمالات، فإذا لم يكن معذوراً ولم يأت فعدم مجيبه خير لنا من مجيبه(8)، وإن كان معذوراً وقلبه معنا وعزمه أن يلحق بنا لو استطاع فهو معنا، فأجاب الرجل إنه كذلك يا أمير المؤمنين فأجابه الإمام(ع): أن ليس أخوك وحده كان معنا بل ورجال آخرون ما زالوا في أرحام أمهاتهم بل وفي أصلاب آبائهم، فهذا حكم ثابت فكل شخص وحتى يوم القيامة إذا وجد وكان في قلبه عزم صادق أن لو أدرك علماً في صفين لنصره فهو مع علي ويعتبر من أنصار علي وجيش علي في صفين حتى وإن لم يحضر صفين بل ولم يعاصرها.

انتظار الفرج:

ماذا يعني انتظار الظهور...؟ وماذا يعني نص «أفضل الأعمال انتظار الفرج» وهو أفضل الأعمال يعني أن ننتظر ظهور إمام العصر(عج) مع جمع من خواص أصحابه وأنصاره وعدتهم (313) رجلاً ومعهم جمع آخر من غير الخواص، فيحاربون أعداء الإسلام ويطهرون الأرض من دنسهم، ويقومون العدل والأمن في البلاد ويوفرون الرفاه والحرية بأكمل صورهما، بعد ذلك يقولون لنا تفضلوا! البعض يتوهم أن انتظار الفرج هو هذا، ويصفونه بأنه أفضل الأعمال، ولكن الانتظار الحقيقي للفرج، هو بانتظارنا ظهور الإمام(ع) للانخراط في جيشه والقتال تحت إمرته حتى لو استشهدنا في هذا القتال، الانتظار الحقيقي هو أن يكون أمل الإنسان كله وكل أمانيه حقاً هي الجهاد في سبيل الله، وليس الانتظار حتى يأتي الحجة(عج) فنقول له: اذهب أنت وحدك فأنجز كل المهام الشاقة، وعندما يحين وقت جني الثمار سنأتي نحن، هذا هو منطق أصحاب موسى، أما أصحاب محمد فقد قالوا له: يا رسول الله لا نقول لك ما قاله لموسى بنو إسرائيل. أصحاب موسى عندما وصلوا إلى فلسطين - بيت المقدس - ورأوا فيها جنداً متأهبين قالوا لموسى: (أَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ) (المائدة: 24)، كان هذا هو منطق أصحاب موسى، اذهب أنت وربك فقاتلا وطهرا فلسطين من دنس الأعداء، سنأتي نحن بعد أن نضمن إلى أنه لم يبق خطر فيها، إن موسى(ع) قد سألهم مستنكراً: فما هو واجبك إذن؟! عليكم أنتم أيضاً أن تخرجوا من دياركم الغاصب الذي أخرجكم منها، أما أصحاب النبي الأكرم(ص) أمثال المقداد، فما كان قولهم كهذا، وإنما قالوا: «لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جنت به هو الحق وأعطيناك موثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً»(9).

إذن فالانتصار الحقيقي للفرج هو أن يترسخ في قلوبنا عزم صادق ونية حقيقية وأمل بأن نوفق لأن نكون في جيش إمام العصر (عج) فنشارك معه في إصلاح الدنيا.

«يا ليتنا كنا معك فنفوز فوزاً عظيماً» هذه الجملة كثيراً ما نردها ونخاطب بها أبا عبد الله الحسين (ع)، ولكن هل يا ترى ننتبه حقاً إلى معناها، أن معناها، هو «أن يا أبا عبد الله يا ليتنا كنا معك فنستشهد بين يديك وتحت رايتك وبذلك نفوز فوزاً عظيماً». فهل هذا التمني مجرد قول أم أنه يعبر عن صدق نية ورغبة حقيقية؟! هناك من يطلق هذه العبارة بصدق وعقيدة، لكن أكثرنا يقرأها في الزيارة ولا تتعدى لقلقة اللسان.

فللإمام الحسين (ع) كلمة بحق أصحابه يقول فيها: «ما رأيتم أصحاباً أبر وأوفى من أصحابي» ([10])، أحد كبار علماء الشيعة كان يشكك في نسبة هذا القول للإمام الحسين (ع) وكان يستدل على عدم تصديقه ذلك النص بقوله: «إني كلما فكرت مع نفسي، توصلت إلى أن أصحاب الحسين (ع) لم يقوموا بعمل خارق للعادة، بل عن العدو هو الذي أظهر خسة ووضاعة إلى أقصى حد، فالإمام الحسين هو سبط النبي الأكرم ورياحته وهو ابن علي والزهراء، وهو إمام عصره وهو وهو... لذا فمن الطبيعي أن ينصر الحسين أي مسلم عادي يراه (ع) في ذلك الوضع، أولئك الذين نصره، لم يظهروا شجاعة فائقة وخارقة للعادة، بل إن الذين لم ينصروه هم الذين كانوا سيئين جداً». ويتابع هذا العالم الكبير حديثه فيقول: «ويبدو أن الله سبحانه أراد أن ينفذني من هذه الغفلة والجهالة والضلالة فرأيت في عالم الرؤيا وكأني حاضر في واقعة الطف، فأعلنت للإمام الحسين (ع) استعدادي لنصرته، إذ ذهبت إليه فسلمت وقلت: يا ابن رسول الله أتيتك ملبياً لندائك لأكون من أنصارك، فقال (ع): إنني فانتظر أمرنا... ثم حل وقت الصلاة ([11]) فقال (ع): نحن نريد إقامة الصلاة فقف أنت هنا كي تحول دون وصول سهام العدو إلينا حتى تتم الصلاة، فقلت أفعل يا ابن رسول الله، فشرع (ع) بالصلاة ووقفت أمامه وبعد هنيهة رأيت سهماً ينطلق بسرعة نحو، فلما اقترب طأطأت رأسي دون إرادتي فإذا بالسهم يصيب الإمام (ع) فقلت - والحديث لا زال في عالم الرؤيا - أستغفر الله وأتوب إليه، ما أقبح ما فعلت، لن أسمح بعد هذا لتكرار مثله، أي بوصول سهم إلى الإمام (ع)، وبعد هنيهة أخرى، أتى سهم ثان، فحدث مني ما حدث في المرة الأولى، وأصيب الإمام ثانية بسهم آخر، وتكرر الحال الثالثة ورابعة والسهم تصيب أبا عبد الله وأنا لا أمنعها من الوصول إليه وحانت مني التفاتة فرأيت الإمام ينظر إلي مبتسماً ثم قال: «ما رأيتم أصحاباً أبر ولا أوفى من أصحابي» إن الجلوس في البيت وتكرار قول «يا ليتنا كنا معك فنفوز فوزاً عظيماً»، لا قيمة له ما لم تقرنه بالعمل والتطبيق فهل أنت كذلك؟ إن أصحابي كانوا أهل عمل وتطبيق ولم يكونوا أهل قول مجرد عن العمل.

لقد انجزَّ الحديث تلقائياً إلى هنا، ولقد اقترب وقت الظهر وفيه صلى الحسين (ع) يوم عاشوراء آخر صلاة له في هذه الدنيا وقد استشهد معظم أصحابه في هذا اليوم قبل الظهر وعند حلوله لم يكن قد بقي إلا الحسين (ع) وأهل بيته ونفر من أصحابه، إذ استشهد القسم الأكبر منهم قبل ذلك في أثناء التراشق المتبادل للسهم - حرب الرماة - الجيش الصغير ذو العدد القليل، كان جيش أبي عبد الله لا يزيد على اثنين وسبعين رجلاً، لكن هذا الجيش الصغير كان يتمتع بمعنويات عالية، وشجاعة منقطة النظير، الإمام الحسين (ع) كان يأبى ويأنف من أن تظهر عليه أدنى إمارة الضعف والانكسار، كذلك نظمه تنظيمًا حربيًا، جعل لهؤلاء الاثنين والسبعين، قلباً وميمنة وميسرة كأي جيش نظامي آخر، فكان زهير بن القين على الميمنة وحبيب بن مظاهر على الميسرة وعقد راية جيشه لأخيه أبي الفضل العباس (ع) الذي أصبح منذ ذلك اليوم يلقب بحامل لواء الحسين (ع).

أصحاب أبي عبد الله كانوا يتلهفون لبدء القتال، لكن الإمام (ع) كان يأبى ويصر على أن لا يقاتل حتى يبدأهم الأعداء بالقتال. وأما قصة القتال فكانت على يد عمر بن سعد.

إن عمر بن سعد كان يريد أن يجمع الدين والدنيا معاً، الله والمادة معاً، كان يريد أن يجمع بين حصوله على ملك الري من ابن زياد، ولكن دون أن يلطخ يديه بدم الحسين (ع) وبسبب هذا الصراع الذي كان يعانيه مع نفسه، أرسل ابن سعد الرسائل المتوالية سعيًا لتجنب القتال مع الحسين (ع) وعندما علم ابن زياد بعهده المساعي، أرسل إلى ابن سعد رسالة شديدة اللهجة، عنفه فيها وأمره أن يحسم الأمر سريعاً بقتل الحسين (ع) وهدده بأنه سيعزله وينصب غيره إن لم يفعل، لم يستطع عمر بن سعد أن يتخلص من عبودية الدنيا، وإذا تردد الأمر بينها وبين الدين باع دينه طمعاً بالدنيا، فقال سمعاً وطاعة لأمر الأمير ابن زياد لعنه الله، فأظهر الكثير من الضعة والخسة والغدر وارتكب أفظع الجرائم التي عرفها التاريخ. ويعلل ابن سعد ارتكابه لقسم من تلك الجرائم بأنه كان يسعى من أجل أن ينفي عن نفسه تهمة الانحياز إلى الإمام الحسين (ع)، ومن أجل أن يؤكد لابن زياد إخلاصه وولائه له بعد أن وصلت لابن زياد رسائل تتهم ابن سعد بالتردد في قتال الإمام (ع) والميل إليه، ونفيًا لهذه التهمة أقدم ابن سعد على ارتكاب سلسلة من الجرائم البشعة بحق آل الرسول تملقاً لابن زياد، فأمر فرقة الرماة بالاستعداد

بعد أن تقابل الجيшان، فاستعد الرماة وأخذ ابن سعد سهماً وأطلقه نحو خيام الإمام الحسين(ع) وقال: «اشهدوا لي عند الأمير إني أول من رمى»([12]).

هذه هي قصة أول سهم أطلق في واقعة الطف، وأنا كلما وصلت إلى هذا المقطع من واقعة الطف في كربلاء تذكرت قولاً لصديقنا وصديقكم العالم الكبير المرحوم آيتي، فلقد سمعت منه أو قرأت له أن واقعة الطف بدأت بسهم وختمت بسهم، لقد بدنت بسهم عمر بن سعد فهل تعرفون السهم الذي ختمت به؟! أي الذي أنهى القتال بين الطرفين... لقد كان ذلك عندما وقف سيد الشهداء وحده في الميدان وقد تعب من كثرة القتال وأخذ منه العطش مأخذاً عظيماً، ثم كان(ع) أن أصابته حجارة رماها أحد الأوغاد نحوه، فأصابت جبهته المباركة وسال منها الدم الزاكي فلما رفع الإمام ثوبه يمسح جبينه أتاه سهم مثلث مسموم فأصاب قلبه فختم بذلك جهاد سيد الشهداء، ولم يعد الإمام يذكر شيئاً ولم يعد يخاطب إلا ربه قائلاً: «بسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله»([13]).

كان عباس بن شبيب الشاكري رجلاً من أصحاب الحسين قد ملأت كيانه روح الشجاعة والبطولة الحسينية، فوقف في وسط الميدان يدعو جيش بني أمية للمبارزة... فلم يجرؤ أي منهم تحدي هذا الليث الغاضب، وبعد تكرار الدعوة لهم، وجد العباس أن لامة حربه تعيقه عن الحركة ومهاجمة أعداء الله، فخلعها كلها - درعه وطاسه وغير ذلك - وعاد إلى الميدان يهاجم أعداء الإسلام، فلم يجرؤ أحد على الوقوف في طريقه، وما استطاعوا قتله إلا برميهِ بوابل من الحجارة والسهم فاستشهد بهذا الأسلوب الوحشي، ولقد رسم جميع أصحاب أبي عبد الله(ع) في يوم الطف أروع صور البطولة والفداء، رجالاً ونساءً، وزينوا تاريخ البشرية بلوحات مدهشة وصفحات مشرقة ليس لها نظير ولو كانت قد وجدت مثل هذه الصور البطولية المشرقة في تاريخ العرب، لرأيت كيف يعظمونها ويصنعون منها نماذج مشرقة.

وعبد الله بن عمير الكلبي رجل آخر من أصحاب الحسين(ع) كان قد اصطحب معه إلى كربلاء زوجته ووالدته، وقد كان من الأبطال البارزين، وعندما أراد النزول إلى الميدان في يوم عاشوراء، اعترضته زوجته وقالت له: إلى من تتركني وعند من تودعني - وكان جديد عهد بالزواج منها - ثم أردفت قائلة: «بالله لا تفجعني في نفسك». وما أن سمعت أمه قول زوجته حتى خاطبتها: «يا بني لا تسمع لقولها. اذهب وقاتل بين يدي ابن رسول الله(ص) ليكون غداً في القيامة شفيحك، ولا أرضى عنك حتى تقتل بين يدي الحسين». فرجع وقاتل حتى استشهد فأخذت أمه عمود الخيمة وهاجمت الأعداء، فردها الحسين وقال: «جزيتم من أهل بيت خيراً أرجعي إلى النساء يرحمك الله فقد وضع عنك الجهاد» ويرتكب الأعداء جريمة بشعة جديدة إذ يقطعون رأس عبد الله ويرمون به صوب أمه فتأخذه وتمسح التراب عنه وتقبله وتحضنه وتخاطبه بقولها: «قد رضيت عنك بني قد رضيت» ثم ترميه إلى معسكر الأعداء وهي تقول: ما قدمناه في سبيل الله فلن نسترجعه.

ومن الانتصار الآخرين الذين استأنفوا الحسين(ع) في الخروج للقتال، صبي ابن عشرة أعوام أو اثني عشر عاماً، كان أبوه قد قتل في المعركة، وقد شد الصبي حمائل سيفه، طالباً الإذن بالقتال لكن الإمام الحسين(ع) لم يأذن له بالقتال رافة بأمه التي فجعت بزواجها منذ قليل فقال(ع): «هذا غلام قتل أبوه في الحملة الأولى ولعل أمه تكره ذلك» فأجابته الغلام مؤكداً رضا والدته بقتاله دون الحسين وعدم رضاها بغير ذلك فقال: «إن أمي هي التي أمرتني وقالت لا أرضى عنك حتى تقتل دون الحسين».

هذا الصبي امتاز بأدب رفيع وخلق عال وقد ضرب في يوم الطف مثلاً رائعاً في الرفعة والسمو امتاز بهما على الجميع، إذ أن كل من كان يبرز إلى ميدان القتال من أصحاب الحسين(ع)، كان يعرف نفسه رجزاً أو خطابة وهذا أمر تعارفت عليه العرب، وكان من يرتجز أو يتحدث يذكر - عادة - اسمه واسم أبيه وعشيرته، ولكن هذا الصبي لم يفعل ذلك، ولم يذكر اسمه أو اسم أبيه وعشيرته، بل ظل مجهولاً في التاريخ، وأرباب المقاتل لم يذكروا ابن أي من الأصحاب هو، ولم يكتبوا في تعريفه سوى «وخرج غلام قتل أبوه في المعركة»، فلماذا لم يعرف، ألم يرتجز ويعرف نفسه عندما برز للقتال؟ بلى فعل ذلك، وأنشد رجزاً أبدع فيه كل الإبداع وبطريقة تفرد بها ولم يسبقه أو يلحقه فيها أحد. لقد ارتجز قائلاً:

«أميري حسين ونعم الأمير

سرور فؤاد البشير النذير»

«علي وفاطمة والده

فهل تعلمون له من نظير»

بهذا الرجز لا أكثر، عرف نفسه للعالم فلم يعرف نفسه بذكر اسمه والافتخار بأبيه وجده وعشيرته، بل عرف نفسه بالافتخار بأنه من جند الحسين(ع) وإن أميره الحسين وكفى.

«اللهم ارزقنا توفيق الطاعة، وبعد المعصية وصدق النية وعرفان الرحمة وأكرمنا بالهدى والاستقامة، وسدد ألسنتنا بالصواب والحكمة واملأ قلوبنا بالعلم والمعرفة.

اللهم نور قلوبنا بنور الإيمان.

اللهم واجعلنا من المهاجرين والمجاهدين حقاً في سبيل إعلاء كلمة دينك.

اللهم وانصر المسلمين على أعدائهم في كافة الجبهات.

اللهم وارجع سهام شر اليهود إلى نحورهم.

اللهم اشف مرضى المسلمين.

اللهم واجعل قلب إمام زماننا راضياً عنا جميعاً.

اللهم وتفضل على أمواتنا بالرحمة والمغفرة».

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

وصلى الله على محمد وآله الطاهرين

[1] عندما فتحت الجارية الباب كانت أصوات الغناء والعريضة تصل إلى الشارع من داخل دار بشر وسمعتها الإمام.

[2] وسائل الشيعة، ج 11 ص 124 الطبعة الحديثة نقلاً عن المجازات النبوية عن الرسول(ص) قال: (الحديث).

[3] نهج البلاغة، ولالإمام علي(ع) حكمة بالغة توضح هذا المعنى إذ يقول (ع): «ما ظفر من ظفر الإثم به، والغالب بالشر مغلوب» نهج البلاغة ص 533 ط. بيروت بفهرسة د. صبحي الصالح الحكمة رقم 327.

[4] وما يؤسف له أن هذه المعنويات فقدت بين رياضيي هذا العصر، ففي السباق كان الرياضيون يرون في الإمام علي(ع) النموذج الأكمل للبطل، لأنه(ع) كان بطلاً على كلا الجبهتين، جبهة الصراع مع أعداء الله في ميادين الحرب، وجبهة الصراع مع النفس الأمارة بالسوء وأهوائها.

القوة الحقيقية والبطولة المثلى لا يمكن أن تحقق إلا إذا تحرر الإنسان من عبودية الهوى والشهوة، أي أن البطل والشجاع حقاً من لا يتصدى لأعراض الناس، لأن روح الشجاعة الحقّة تمنعه من ذلك، وهو لا يزنّي لأن روح الشجاعة والبطولة لا تسمح له بذلك، وهو لا يشرب الخمر لأن روح الشجاعة ترفض ذلك.

والبطل والقوي والشجاع، لا يكذب، فالشجاعة تأبى أن تكون حليف الكاذب، والشجاع لا يتملق فالتملق ضد للشجاعة والقوة.

فالبطل الحقيقي، ليس ذلك الذي يقدر على رفع ثقل كبير أو صخرة ضخمة بل الأهم هو أن يقدر على هوى نفسه وينتصر عليها.

[5] وسبب تسميته بهذا الاسم هو أنه كان مقبلاً في ركب من قريش حتى إذا وصلوا إلى وادي يليل - وهو واد قريب من بدر - تعرضت لهم بنو بكر في عدد من الفرسان، فقال عمرو بن ود لأصحابه: أمضوا، فمضوا، وتصدى وحده لبني بكر ومنعهم من أن يصلوا إليه فعرف بذلك (عن الميزان مج 16 ص 297 في تفسير سورة الأحزاب).

[16] الرواية التي وجدناها ينقلها المجلسي في البحار ج 41 ص 51 طبعة بيروت الحديثة. وفيها: (أنه لما أدرك عمرو بن عبد ود، لم يضربه، فوقعوا في علي(ع) - ويقصد أن أصحاب الرسول(ص) انتقدوا علياً بسبب تركه الإجهاز على عمرو - فرد عنه حذيفة فقال النبي(ص): مه يا حذيفة فإن علياً سيذكر سبب وفقته، ثم أنه ضربه - أي أن الإمام علي قتل عمرواً - فلما عاد (ع)، سألته النبي عن ذلك - التأخير في قتل عمرو - فقال (ع) (قد كان - عمرو - شتم أمي وتغل في وجهي، فخشيت أن أضربه لحظ نفسي - غضباً لها - فتركته حتى سكن ما بي ثم قتلته في الله).

[17] الرواية التي وجدناها في نهج البلاغة تذكر أن هذا الحوار حدث أثناء عودة الإمام من البصرة بعد أن نصره الله على أصحاب الجمل لا بعد عودته من صفين كما ذكر الأستاذ الشهيد ونحن إذ ذكرنا الترجمة التوضيحية للنص كما ذكرها الشيخ الشهيد، نثبت هذا النص الذي وجدناه في النهج: ومن كلام له (ع):

(لما أظفرك الله بأصحاب الجمل، وقد قال له بعض أصحابه: وددت أن أخي فلاناً كان شاهداً ليرى ما نصرك الله به على أعدائك، فقال له (ع):

(أهوى أخيك معنا؟ فقال: نعم، قال (ع): فقد شهدنا، ولقد شهدنا في عسكرنا هذا أقوام في أصلاب الرجال وأرحام النساء، سيرعف - يوجد بهم عن غير انتظار - بهم الزمان ويقوى بهم الإيمان) نهج البلاغة ط. بيروت ص 55 من الجزء الأول بفهارس وتعليق الدكتور صبحي الصالح.

[18] (ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين * لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم...). (التوبة: 46 - 47).

هذا بالنسبة للطائفة الأولى. أما بالنسبة للطائفة الثانية التي يذكرها الإمام (ع) فيتلطف القرآن الكريم في وصفهم فيقول في سياق الآيات السابقة:

(ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا الله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم * ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون) (التوبة: 91 - 92).

وفي سنن ابن ماجه، كتاب الجهاد، ج 2 ص 923 عن الرسول(ص) أنه قال لما رجع من غزوة تبوك وعند اقترابه من المدينة: (إن بالمدينة لقوماً، ما سرتم من مسير ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم فيه) قالوا يا رسول الله وهم بالمدينة؟ قال(ص): (وهم بالمدينة، حسبهم العذر).

[19] القول لسعد بن معاذ وقد قاله جواباً للرسول(ص) الذي استشار الأنصار في الخروج إلى المشركين في معركة بدر، تجده في السيرة النبوية لابن هاشم، غزوة بدر. نهاية الجزء الثاني من طبعة بيروت.

[10] هذا هو النص الذي ذكره الأستاذ الشهيد وما وجدناه في كتب المقاتل هو أن الإمام الحسين (ع) جمع أصحابه وأهل بيته ليلة العاشر من المحرم وخطب فيهم، ومما قاله (ع):

(أما بعد، فإني لا أعلم أصحاباً أولى وخيراً من أصحابي، ولا أهل بيت أبر ولا أوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله عني جميعاً خيراً).

([11]) جاء في كتب المقاتل أن سعيد بن عبد الله الحنفي ورجالاً آخرين أحاطوا بالإمام الحسين وأصحابه أثناء إقامة الصلاة وحموهم بصدورهم حتى أتموا الصلاة. (راجع جلاء العيون للسيد عبد الله شبر باب: نزوله (ع) في كربلاء حتى استشهاده).

([12]) جدير بالذكر أن أبا سعد بن أبي وقاص كان من أصحاب رسول الله (ص) ومن الرماة المشهورين بين العرب بالمهارة وقد أبلى في الحروب الإسلامية بلاءً حسناً وقدم خدمات جليلة للإسلام في هذا المضمار.

([13]) جلاء العيون للسيد عبد الله شبر، - وقد اعتمدنا عليه في ضبط النصوص المتعلقة بواقعة الطف في المحاضرات الثلاث.

المحاضرة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وبارئ الخالق أجمعين والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله وحبيبه وصفيه وحافظ سره ومبلغ رسالاته سيدنا ونبينا ومولانا أبي القاسم محمد (ص) وآله الطيبين الطاهرين المعصومين. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم:

(وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا) ([1]).

في المحاضرة الأولى، كان حديثنا عن أصلي الهجرة والجهاد الذين ورد ذكرهما معاً ومراراً وتكراراً في القرآن الكريم، أما بحثنا في هذه المحاضرة فهو تنمة لما سبق، إذ نتحدث عن قيمة هذين الأصلين وأثرهما في تربية الإنسان وتكامله خاصة من الناحية الأخلاقية، وقد نتطرق في الحديث أحياناً إلى الناحية الاجتماعية لهما، وقد تحدثنا سابقاً عن الفهم المتطرف الذي فسر به مفهوم الجهاد والهجرة، وأوضحنا التفسير الحثّ والصحيح وحدوده، ولاحظوا هنا أننا إذا أردنا الحصول على روح الهجرة والجهاد على كافة الجبهات - المادية والمعنوية - فعلينا أن نعرف أن معنى الهجرة هو التخلص من الأشياء التي تلتصق بالإنسان أو يلتصق بها هو والابتعاد عنها. فالمهاجر هو القادر على هجر أي عمل اعتاد على ممارسته إذا اقتضت الظروف الشرعية ذلك أما الجهاد فهو الصراع والكدح والكفاح، سواء مع أعداء الله في الخارج أو مع النفس الأمارة بالسوء في الداخل، ولن يكون نصيب الإنسان بدون الهجرة والجهاد، إلا الذلّ والمسكنة، فالإنسان يكون إنساناً بمعنى الكلمة عندما يكون حراً من جميع قيود الذلّ التي تحيط به، وأن لا يكون عبداً لأي شيء مهما كان قريباً منه وملتصقاً به، وإلا فالذي يخضع للظروف التي يعيش فيها ويكون عاجزاً عن التخلص منها، لا يمكن أن يوصف بأنه حر مطلقاً، بل على العكس هو أسير وذليل تجاه ذلك الواقع.

وإذا تناولنا موضوع الهجرة الظاهرية حيث يبرز فيها السفر كجزء أساس من أجزائها، لبرز تلقائياً سؤال هو: أيهما أفضل للإنسان السفر أم الإقامة؟! ولا نقصد هنا بالضبط أن يكون الإنسان على سفر دائم دون إقامة أو وطن أصلاً، بل نقصد هل أن إقامة الإنسان في وطنه دائماً دون أن يسافر مطلقاً، أفضل، أم أن السفر مفيد للإنسان وهو بحد ذاته هجرة؟! فالسفر - من وجهة النظر الإسلامية - يعتبر أمراً ممدوحاً بحد ذاته.

إن الإسلام قد نهى عن السياحة في الأرض ([2]) لكن ذلك لا يعني أن يقضي الإنسان عمره في قريت أو مدينته فلا يخرج منها، ولا يسافر فيرى البلدان الأخرى، فهذا الوضع الجامد يضعف روح الإنسان ويجعلها خاضعة لحكم البيئة التي يعيش فيها.

أما حال الإنسان الذي يسافر فعلى العكس من ذلك، خاصة إذا كان هدفه من السفر هو طلب العلى والمنزلة الرفيعة واكتساب الفضائل والكمالات الإنسانية. وفي السفر تكمن خمس فوائد هي:

1- تفرج هم: إن السفر يزيج الهموم والأحزان عن القلب. فالإنسان ما دام مستقراً في بيئته التي شهدت حياته الماضية، فإنه يتذكر دائماً المشاكل والأحزان التي مرت به، وهذا ما يجلب له الهموم، في حين أن السفر والابتعاد عن تلك البيئة، يبعد الإنسان عن كل ما يذكره بتلك الأحزان، وبالتالي فإن أولى فوائد السفر هي أن يتخلص الإنسان - ولو لفترة مؤقتة - من الهموم والغوم التي تعصر قبله وتسحق روحه.

2- اكتساب معيشة: الذكي يستطيع أن يكتسب معيشته بالسفر إلى مكان آخر، فلا ينبغي للإنسان أن يحدد مصادر كسبه بالمحيط الذي يعيش فيه إذ ما أكثر الذين هاجروا من بلدانهم إلى بلدان أخرى، واستطاعوا بما يملكون من كفاءة، أن يحصلوا على حياة أفضل وأكثر حيوية وموارد كسب أوسع.

3- طلب العلم: غير ما تقدم هناك فائدة مهمة أخرى للسفر وهي طلب العلم، وكل عالم له عالم خاص به، قد يكون هناك في مدينتكم علماء كبار، ولكن لكل زهرة عطر خاص بها، عالم المدينة الأخرى قد لا يصل إلى مستوى العالم في مدينتكم، ولكن له عالم خاص به وعطر خاص به، وعندما تلتقون به ستجدون عنده علماً غير الذي عندكم فتكسبون بذلك علماً جديداً.

4- اكتساب الفضائل: لا يمكن اكتساب الأخلاق جميعها بالاعتماد على العلوم النظرية وحدها وبالبقاء في بيئة واحدة. كما أن السفر وحده ودون أن يكون للإنسان أساس من المعرفة، لا يمكن أن يثمر شيئاً في اكتساب الفضائل والأخلاق. أما إذا كان الإنسان يملك أساساً من المعرفة السليمة ثم يسافر، عندئذ سترك السفر عليه أثراً إيجابية للغاية. فالذي يسافر سيرى ما لم يره في بلده، وذاك النضج الذي تبلغه الروح من جراء الهجرة والسفر إلى البلدان الأخرى لا يمكن أن يحصل عليه الإنسان بأية وسيلة أخرى وبضمنها قراءة الكتب.

هناك من يقول: إنني لا أحتاج للسفر إلى البلدان الأخرى، إذ باستطاعتي أن أحصل على ما أريد معرفته بقراءة الكتب التي تتحدث عن تلك البلدان. المطالعة أمر مفيد بلا شك، لكنها على أي حال لن تستطيع أن تترك في الإنسان نفس الأثر الذي يتركه السفر والمشاهدة عن قرب، في القرآن الكريم آيات تأمر بالسير في الأرض مثل: (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ) و: (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ)، ويتفق المؤرخون على أن ما تقصده هذه الآيات هو الاطلاع على التاريخ والاعتبار به، لكن القرآن لا يحصر تحقق هذا الأمر بقراءة الكتب التاريخية بل يدعو إلى ما هو أعظم أثراً من ذلك ألا وهو مشاهدة الآثار التاريخية على الأرض، والاعتبار بها، وهذه الفائدة هي من جملة الفوائد التي يحققها السفر، والتي لا يمكن أن تتحقق بغيره، الإمام علي(ع) يقول في الديوان المنسوب إليه:

تغرب عن الأوطان في طلب العلى

وسافر ففي الأسفار خمس فوائد

تفرج هم، واكتساب معيشة

وعلم وأداب وصحبة ماجد

سافر، ولا تكن مثل الطير المحبوس في القفص، سافر وليكن هدفك التعرف على من تسافر إليهم، عندما تسافرون إلى بلدان أخرى، ستتعرفون على نماذج جديدة من الآداب والأخلاق الاجتماعية قد تجدونها أحياناً أفضل من أخلاقكم وآدابكم فتكتسبون منها أو على الأقل فإنكم تستطيعون أن تقارنوا بين تلك الأخلاق والطباع وأخلاقكم وطبائعكم فتنتخبوا الأفضل منها.

5- صحبة ماجد: وغير ما تقدم هناك فائدة أخرى وهي صحبة رجل ماجد، ففي السفر قد يوفق الإنسان لمصاحبة الرجال العظماء، ومعروف ما تثمره مصاحبة هؤلاء من ثمار طيبة وما تتركه من آثار إيجابية على أخلاق الفرد، والصحبة هنا لا تعني علاقة التعليم والتعلم بل تعني المعاشرة الطيبة بما يتخللها من تعلم عملي نافع.

وعندما يحدد الإمام(ع) هدف السفر «طلب العلي» فهذا لا يعني قصر الاهتمام في أثناء السفر، بالبحث عن أفضل الأطعمة وأرقى الفنادق وأمثال ذلك. أن طلب العلي يعني أن يكون الهدف من السفر هو اكتساب الفضائل والعلوم والمعارف والكمالات الإنسانية والنضج العقلي. فلتكن هذه الصفات هي ثمار الأسفار والهجرة.

والتاريخ بدوره يثبت لنا أن العلماء الذين سافروا وهاجروا - خصوصاً بعد طيهم لمراحل النضج الأولى - قد اكتسبوا نضجاً جديداً وكاملاً أرقى، فالشيخ البهائي مثلاً له ميزة خاصة وموقع خاص بين العلماء، فقد كان عالماً موسوعياً حقاً، برع في مختلف فنون العلم. ومن بين الشعراء برز اسم الشاعر سعدي الذي برع في مختلف فنون الشعر - الغزل والعرفان والحماسة والفخر وغير ذلك - وسر براعته في كل تلك الفنون يرجع إلى اتساع ثقافته ومعارفه.

سعدي هذا عاش تسعين عاماً، قضى ثلاثين منها في التحصيل والدراسة، وثلاثين أخرى في السفر والتجوال، والثلاثين الأخيرة كانت مرحلة نضجه وتكامله وفيها ظهرت ثمار عمره الطويل فكانت تأليفه القيمة التي كتب معظمها في هذه الفترة. لذلك أصبح سعدي رجلاً ناضجاً ومتكاملاً نسبياً.

يقول هذا الشاعر في ديوانه «بوستان» متحدثاً عن أسفاره وآثارها، ما ترجمته: «ولقد جلت في أرجاء العالم كثيراً، ورافقت كل شخص أياماً، واستفدت من كل صوب وزاوية شيئاً، وحصدت من كل حقل سنبله».

يقول سعدي في قصص كتابيه «گلستان و بوستان»:

«كنت في جامع بعلبك فحدث كذا وكذا» ويقول في محل آخر: «وكنت في كاشمر وحدث كذا وكذا» فأين بعلبك من كاشمر، وما أبعد الشقة بينهما، وفي الثالثة يقول: «كنت في الهند وحدث كيت وكيت» وفي رابعة يقول: «صادفت رجلاً كانت طباعه وأفعاله كيت وكيت، وقد رافقته في سفري إلى الحجاز».

كل هذه المشاهدات وغيرها يعكسها سعدي في شعره، ولا شك أن شاعرية وروحية الشاعر تتكاملان بهذه المشاهدات والتجارب، بل هي السر الذي يكمن وراء ما تجده في شعر شاعر كسعدي من تنوع وإبداع في مختلف الفنون، وهذه الميزة تجدها في شعر مولوي الذي كان قد سافر كثيراً أيضاً وتعرف على ثقافات الكثير من الشعوب، وأدخل بعضاً من أخيلتهم وتعابيرهم في شعره. وكان يعرف ألسنتهم وملماً بثقافتهم. وهذه الميزة لا تجدها في شعر حافظ، فعلى الرغم من أننا نعزّز به كثيراً، إذ أنه كان رجلاً عارفاً متميزاً حقاً، وعلى الرغم من أنه برع كل البراعة في فن الغزل العرفاني، وتعمق فيه غاية التعمق حتى أن سعدي لم يستطع اللحاق به في هذا الفن، على الرغم من كل هذه الميزات التي تميز بها حافظ إلا أن براعته قد ظهرت في فن واحد فقط من فنون الشعر، وحافظ لم يستطع أن يقتنع نفسه بمغادرة وطنه شيراز، ويقول حافظ نفسه في تصوير حالته هذه وتعلقه بوطنه شيراز:

«ولو أن أصفهان هي نبع الحياة، إلا أن شيراز أفضل» ويكثر في شعره من مدح شيراز والتحدث عن جمالها ومميزاتها. ظل حافظ ملتصقاً بصومعته في شيراز ولم يغادرها، ويقال إنه سافر مرة إلى يزد، لكنه اكتأب وحزن كثيراً لذلك، وكم كان يتعنى في شعره أن يعود إلى وطنه شيراز، في شعر من هذا الطراز يتمنى حافظ أن يذهب إلى ما يصفه بملك سليمان ويتخلص مما يصفه بسجن الاسكندر الذي ضاق صدره منه، وهذا الوصف يبين في الواقع لسان حال الشاعر، فقد ورد في الأساطير القديمة أن الإسكندر المقدوني عندما احتل إيران اتخذ من يزد سجنًا يرسل إليه من يحكم عليه بالحبس، في حين أن شيراز كانت تسمى قديماً بملك سليمان.

مما تقدم يتضح مقصود الشاعر ومشاعره تجاه يزد وشيراز([3]) وكدليل آخر على أن الوصف المتقدم من الشاعر تجاه يزد وشيراز نابع من حبه لشيراز وتعلقه بوطنه وإن ضيق صدره من يزد لا يرجع إلى سوء معاملة أهلها بل من شوقه إلى مدينته شيراز وتعلقه بها، إذ نجده في قصائد أخرى يمدح أهل يزد ويعترف بحسن استقبالهم له وحفاوتهم به. ومهما يكن الحال فإنه عندما عرض على حافظ السفر إلى الهند للإقامة هناك قرب البحر، رفض ذلك رفضاً قاطعاً، وعاد إلى شيراز وبقي فيها معتكفاً في صومعته ولم يغادرها أبداً.

ولا شك في أن عالماً كالشيخ البهائي الذي طاف الدنيا بأسرها، يتميز كثيراً عن رجل الدين الذي لم يغادر بوابة النجف طوال عمره، فالبهائي تعرف على مختلف الملل والنحل، واحتك بأرانبها وعقائدها وطبائعها، ولدينا الكثير من العلماء الذين اتصلوا

- كالبهائي - بمختلف الطوائف والفرق وسافروا كثيراً واطلعوا على الكثير من أخلاق الشعوب وثقافتهم وتحدثوا مع الكثير من الأساتذة وفي مختلف الفنون وعندما نطالع التاريخ نجد أن مثل هؤلاء العلماء تميزوا باتساع ملحوظ في ثقافتهم وفي أفق تفكيرهم مقارنة لا بأولئك النفر من العلماء الذين كان لهم مستوى مماثل من النبوغ والإخلاص بل أكبر وأشد، إلا أنهم لم يخرجوا إلى العالم ولم يغادروا حدود المدينة التي كانوا يعيشون فيها، فمن المؤكد أن يكون هؤلاء أقل نضجاً من أولئك.

ومما تقدم نستنتج أن للهجرة تفسيراً يختلف عما يدل عليه الظاهر، وقد ورد هذا التفسير في أحاديث المعصومين(ع) ويوضحه النص التالي «المهاجر من هجر السينات» إلا أن هذا التفسير ينبغي ألا يفهم فهماً خاطئاً من لدن البعض، فهذا التفسير لا يلغي المعنى الأول للهجرة - الهجرة بالمعنى الظاهر والمعروف - بل إن هذا التفسير يثبت أن هناك في الإسلام هجرتين لا هجرة واحدة، إحداهما على الصعيد الظاهر والأخرى على الصعيد المعنوي، أي أن الهجرة الإسلامية لا تنحصر في ترك أهل الديار والسفر إلى منطقة أخرى حسب ما تقتضيه مصلحة الإسلام، أو أن لا يكون أسير البيئة التي يعيش فيها، هذا هو نوع من نفي العبودية، ولكن هناك نوع آخر من الهجرة، ألا وهو التحرر من أسر العادات والتقاليد والأمور المعنوية أيضاً والتي يلتصق بها الفرد منذ نشأته، فالإنسان يجب أن لا يكون أسير جوه الروحي الخاص، والتحرر من هذا النوع من الأسر هو الهجرة بالتفسير الثاني الذي ورد ذكره في الأحاديث.

فالإنسان قد يعتاد أحياناً على بعض الأشياء - كالأعراف الاجتماعية والعادات الجسمية - فتتأصل في روحه وبدنه وتصبح بالنسبة له ركناً أساسياً في حياته، فالتدخين مثلاً يعتبر من العادات الجسمية وكثير من المدخنين عندما يمرضون وينصحهم الأطباء بترك التدخين، يجيبون بأنهم لا يقدرون على تركه لأنهم اعتادوا عليه، وترك العادة يجلب المرض وهذا بالطبع كلام فارغ وهراء. «المهاجر من هجر السينات» إن الرجل هو من هجر كل ما اعتاد عليه والتصق به، فالمدخن الذي لا يستطيع ترك التدخين لا يمكن أن يسمى إنساناً حقاً.

المرحوم آية الله حجت([4]) - أعلى الله مقامه - كان مدخناً عجيباً حقاً، لم أر حتى الآن مدخناً مثله، كان أحياناً يشعل السيارة من عقب أختها، وإذا حدث أن فصل بين اثنتين فليس ذلك إلا لوقت قصير جداً. وعندما مرض ونقل إلى طهران للعلاج، نصحه الأطباء بترك التدخين لأنه مصاب بمرض رئوي والتدخين يشكل عليه خطراً كبيراً، في البداية أجابهم مازحاً إني أريد الصدر كي أدخن فإن لم أستطع التدخين فما حاجتي إلى الصدر؟! فقالوا له على كل حال التدخين مضر لك جداً، سألتهم: أحقاً هو مضر؟ قالوا: نعم، فقال: إذن، لن أدخن بعد الآن، هكذا وبكلمة واحدة انتهى كل شيء، وبقرار واحد أصبح هذا الرجل معرضاً عن أمر كان قد اعتاده والتصق به زمناً طويلاً.

وينقل أن المأمون كان معتاداً على أكل التراب، فجمعوا له الأطباء لإنقاذه من هذه العادة فوصفوا له مختلف أنواع العلاجات ولكن دون جدوى، وفي أحد المجالس دار الحديث عن داء المأمون وعجز الأطباء عن علاجه، فقال درويش كان جالساً في أقصى المجلس «إن لدي دواء هذا الداء» فشخص القوم أبصارهم نحوه دهشة وسألوه عن الدواء فأجاب «عزمة من عزمات الملوك» وحين وصل قول هذا الدرويش إلى المأمون قال: أصاب الرجل وفعلاً فقد عزم وتم الأمر.

وينبغي للإنسان ألا يصبح أسير عادة مهما كانت، ويؤسفني أن أقول: إن هذا الأمر منتشر بصورة أوسع بين النساء، إذ يحرصن أكثر من الرجال على التمسك بالعادات الاجتماعية المتعلقة بمراسم العزاء والزواج، وكلما قيل لهن: إن هذا غير صحيح، أجبن على الفور: وماذا نفعل؟ هل ندوس على الأعراف والتقاليد الاجتماعية؟ وإذا طرحنا عليهن السؤال حول الفائدة المجتناة من هذا العرف أو ذاك كان الجواب: إنه عرف اجتماعي لا يمكن التخلي عنه. وهذا الحال يعين الخضوع الأعمى، وفقدان الإرادة، والعبودية تجاه تلك الأعراف، وهذا ما لا ينبغي للإنسان - أي إنسان - أن يكون عليه: فالإنسان العاقل يجب أن يخضع جميع تصرفاته ومواقفه لحكم العقل، والمنطق السليم، وهنا يجدر التنبيه إلى أنه من غير الصحيح ما يذهب إليه بعض المعاصرين من رفض كافة الأعراف الاجتماعية، والتمرد عليها جميعاً إذ هذا تطرف على الجهة الأخرى، نحن لا نرفض جميع الأعراف الاجتماعية بل نرفض منها ما خالف العقل والمنطق ونقبل ما وافقهما. إذن وكما اتضح لكم مما تقدم فإن الإسلام يعتبر الهجرة ركناً أساسياً في حياة الناس، بل الهدف منها هو إحياء وتربية شخصية الإنسان، ومحاربة واحد من أهم العوامل التي تدفع بالإنسان إلى العبودية والذل والخضوع للبيئة التي يعي فيها، أو للأمور المادية أو المعنوية التي يعتاد عليها. فلا ينبغي للإنسان أن يصبح أسيراً للبيئة التي ولد فيها([5]). بل ينبغي له أن يحافظ على حريته واستقلاله فلا يكون عبداً لبيئته ولا للأعراف والعادات الاجتماعية والأخلاق السيئة التي يفرضها عليه المجتمع الذي يحيا فيه، ف «المهاجر من هجر السينات» والهجرة تعني الانفصال والابتعاد عن القبايح التي تحيط بالإنسان مادية كانت أم معنوية.

إذن فنتيجة ما تقدم هي أن الهجرة عامل تربوي مهم بالنسبة للإنسان.

الجهاد

ومعناه هو الصراع، وإذا أخذنا بالتفسير المعنوي - أي الجهاد مع النفس - فإنه يعني الصراع معها. وكما لا ينبغي للإنسان أن يكون أسير البيئة التي يعيش فيها، كذلك لا ينبغي له أن يكون خاضعاً للعوائق والمصاعب الموجودة في البيئة. فقد خلق الإنسان كي يزيل بنفسه تلك العوائق من طريقه ليصل إلى مرتبة التكامل، والرشد المعنوي.

القرآن الكريم يقول: (وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعَماً كَثِيراً وَسَعَةً) ([6]) (النساء: 100) وهذه الآية تسبق قوله تعالى: (وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ...) (الآية) (النساء: 100).

وللقرآن الكريم هنا بيان لطيف وعجيب، إذ أنه يورد قبل آية الهجرة آية المستضعفين:

(إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا) (النساء: 98).

فهذه الآية تناقش وبصيغة الحوار أعداء أولئك الذين ينحرفون عن جادة الرشد والصواب بسبب بقائهم في ظل الظلم وأجواء الفساد ([7])، فعندما تقبض الملائكة أرواح هؤلاء؛ تجد صحائفهم سوداً مملوءة بالقبايح، فتسألهم عن ذلك، فيكون عذرهم، «كنا مستضعفين في الأرض» كنا نعيش في بيئة فاسدة ونحن ضعاف لا نستطيع دفعاً وما شابه ذلك من الأعذار، فترد الملائكة عليهم رافضة أعذارهم وتقول لهم: ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها؟. هذا العذر يمكن أن يقبل من الأشجار التي تعيش في بيئة ملوثة بالدخان مثلاً فتذبل أوراقها وتسود أعضاؤها، والعذر بذلك يقبل منها، لأنها لا تستطيع حراكاً، فجذورها ثابتة في الأرض ولا تستطيع الانفصال عنها، أما من الإنسان فلا، بل وحتى الحيوانات لا تعتذر بمثل هذا العذر فهناك عدد كبير من الحيوانات المهاجرة كالطيور وغيرها فبعضها يهاجر إذا برد الجو إلى المناطق الحارة وهناك الأسماك البحرية التي تهاجر مرتين في العام، هجرة الشتاء وهجرة الصيف فتنتقل في المحيطات من منطقة إلى أخرى قاطعة مئات بل ألوف الكيلومترات، وكذلك الحشرات والجراد التي تهاجر على شكل أسراب كبيرة. إذن فالحيوان يرفض أن يسجن نفسه في بيئته ويقيد بها بترابها وصخرها وطينها، بل يهاجر ويهاجر، فما أقبح أن يعتذر الإنسان بفساد البيئة تبريراً لظلمه نفسه، وعندما تسألهم الملائكة فيما كنتم لماذا ارتكبتم كل هذه الذنوب فما أقبح أن يكون الجواب: إنا كنا نعيش في بيئة فاسدة تنتشر فيها دور السينما، والنساء المتبرجات ومحلات بيع الخمور وأمثال ذلك، كل هذه حجج يدحضها المنطق الملانكي الذي يرد عليهم ب: (أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا) (النساء: 97)، هم يقولون كنا ضعفاء مغلوبين في الجو الذي عشنا فيه، يقولون نحن مسلمون نشهد الشهادتين وكنا ضعفاء وأسرى يخنقنا المجتمع الفاسد الذي كنا نعيش فيه، وعدونا يسحق باستمرار أفكارنا وعقائدنا، وعندئذ يقال لهم: أهذا هو عذرکم؟! فاستمعوا إذن للمنطق الإلهي الذي يقول: (وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعَماً كَثِيراً وَسَعَةً) أي أنه يصل إلى الأرض التي يستطيع منها أن يجاهد أعداء الله، إذا رأيت العدو يحارب عقائدك ومبادئك فحارب أنت أيضاً عقائده ومبادئه، أي أن تخوض صراعاً مع أعدائك وهذا هو الجهاد (وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ).

والتفسير المعنوي لمفهوم الجهاد لا يخرج عن قاعدة الصراع آنفة الذكر إلا أن العدو الذي يجاهد في هذه الحالة هو عدو داخلي وهو النفس الأمارة بالسوء، هناك البعض ممن اعتاد الكذب وإذا قيل له لا تكذب، يتعجب ويقول: هل هناك من لا يكذب؟ فمن المؤكد أن الإنسان يضطر أحياناً إلى الكذب، ويقال للآخر: لا تنتظر يا أخي إلى المرأة الأجنبية! فيستغرب ويقول: وهل يمكن للإنسان أن لا ينظر؟!، ويقال لثالث.. أخي توجه بقلبك إلى الله في الصلاة، ولا تدع ذهنك ينشغل بأمر آخر، فيقول: ذلك أمر مستحيل، لو كان هذا مستحيلاً لما أمر الله تعالى به، بل أنت لا تراقب ولا تنتبه لنفسك ولا تجاهدها، ولو فعلت لاستطعت أن تؤدي صلاتك بخشوع وبحضور قلب وروح.

راقب نفسك وجاهدها ستتمكن من السيطرة على ذهنك وخيالك، فالخيال هو خواطر ذهنية عاجزة على كل حال، ولا يمكن لها اقتحام ذهنك لو لم ترد أنت ذلك ولو لم تسمح به، ولو راقبت نفسك لتمكنت من السيطرة على أفكارك والحيلولة دون تشتتها ودون شرود الذهن. لماذا يصير الإنسان عبداً مسخراً وقد خلقه الله حراً ولم يجعله عبداً لأي مخلوق؟ فإله عز وجل وهب الإنسان من الحرية والاستقلال والقدرة، ما يستطيع به - لو أراد - أن يتحرر من كل شيء بل ويسيطر على كل شيء، لكن ذلك يستلزم إرادة حقيقية وجهاداً وصراعاً حتى مع النفس الأمارة بالسوء وأهوائها وشهواتها وهي عدوه الداخلي، يستلزم ذلك جهاداً مع حب الراحة والدعة وعبودية اللذة، ولا شك بأن من لا يخوض هذا الصراع لن يحظى بالقبول والاحترام. لقد وهب الله تبارك وتعالى الإنسان نعمة العقل وعليه أن يختار بها أحد طريقين، إما مجاهدة النفس الأمارة بالسوء وإخضاعها لحكم العقل السليم - وهذا هو طريق التكامل والرقى في درجات الرفعة - وإما ترك تلك المجاهدة والانقياد للنفس وأهوائها وبذلك يصبح عبداً لها، وأسيراً، ذليلاً تجاه شهواتها وهذا هو طريق الانحدار إلى أسفل سافلين، فـ «النفس إن لم تشغلها شغلتك»، هذه هي صفة النفس الأمارة بالسوء، فما لم تسيطر عليها وتخضعها لإرادتك ولعقلك، شغلتك وجعلتك عبداً لأهوائها وشهواتها.

ماذا كانت فلسفة زهد الإمام علي(ع) وهجرانه الدنيا والإعراض عنها؟! إن فلسفتها كانت إطلاق حرية الإنسان فيه وإخضاع الأنا به، علي(ع) مثلاً كان يأنف من الهزيمة أمام عمرو بن عبد ود ومرحب وأمثالهما كان يأنف بأضعاف مضاعفة من الهزيمة أمام هوى من أهواء النفس ورغبة من رغباتها. يروى أنه(ع) كان ماراً يوماً في السوق من أمام دكان قصاب فأخبره القصاب أنه جلب اليوم لحماً طازجاً جيداً وعرض عليه أن يشتري منه شيئاً، فأجابه الإمام علي(ع) بأنه ليس لديه الآن مال، فقال القصاب: أصبر حتى يأتيك المال، فماذا كان جواب الإمام(ع)؟! لقد أجاب: «بل أقول لبطني أنا أن تصبر، إن لم أستطع أن أقول لبطني أن تصبر، سأقول لك أنت أن تصبر حتى يأتيني المال، ولكني سأقول لبطني أن تصبر». أمير المؤمنين يقول متحدثاً عن فلسفة الزهد: «لو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل ولباب هذا القمح ونسائج هذا القز....».

فعلي(ع) قادر - لو شاء - على الحصول على أفضل متع الدنيا وأرفه الماديات فهو أعرف بطريق الوصول إليها ولكنه لا يفعل. فماذا؟! يجيب عليه السلام بنفسه على ذلك فيقول: «لا ولكن هيهات أن يغلبني هواي...» ثم يخاطب الدنيا بأبلغ الخطاب فيقول:

«إليك عني يا دنيا، فحبلك على غاربك، قد انسللت من مخالبك وأفلت من حبالك»([8]). هذا هو الجهاد الحقيقي مع النفس. إن اليوم الحادي عشر من محرم عام واحد وستين للهجرة، كان من أصعب وأقسى الأيام التي مرت بأهل البيت(ع)، ولو نظرنا إلى واقعة الطف بكلا جانبيها، الجانب المشرق المملوء بأروع صور الفداء والإباء والصبر في سبيل الله، والجانب المظلم الملطخ بأبشع صور الغدر والخسة والجريمة، لو نظرنا إلى هذين الجانبين لتجلت لنا بوضوح حقيقة الحوار الذي يحكيه القرآن يوم أخبر الله عز وجل عن خلقه الإنسان وجعله خليفة له في الأرض: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)([9]).

فجميع ما رآته الملائكة في طبيعة الإنسان من القدرة على الفساد والانحراف والطغيان ظهرت وصارت واقعاً حياً في يوم كربلاء، ولكن وفي نفس هذا اليوم ظهرت الصفحات المشرقة التي تحمل أسمى صور الفضيلة والرفعة التي لم ترها الملائكة في البشر والتي خاطبهم الحق عز وجل بقوله: (إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)، نعم لقد كانت واقعة الطف ساحة عجيبة حقاً للاختبار، فالمجرمون قد ارتكبوا فيها من الجرائم ما يندر وجود مثيل لها في التاريخ أو ينتفي وجودها أصلاً، من تلك الجرائم مثلاً: كانت جريمة ذبح الأطفال أو الفتيان وتقطيع أوصالهم على مرأى من أمهاتهم، وقد عدّ الذين استشهدوا بهذه الصورة في واقعة الطف فكتاتوا ثمانية (ثلاثة فتيان وخمسة أطفال) ذبحوا جميعاً أمام أعين أمهاتهم وقطعوا أوصالاً وفصلت رؤوسهم عن أجسادهم، وكان أحد هؤلاء الثمانية هو عبد الله بن الحسين بن علي بن أبي طالب المعروف بيننا بعلي الأصغر، هذا الطفل الرضيع استشهد أمام خيمة عيال الحسين كما ينص على ذلك أرباب المقاتل ويقولون: إن الإمام الحسين نادى أخته زينب وقال لها: «يا أختاه إبتيني بولدي الرضيع حتى أودعه» وأثناء ما كان الإمام يحتضن طفله الرضيع ويقبله رماه ابن سعد بسهم فذبحه من الوريد إلى الوريد.

والقاسم بن الإمام الحسن شهيد آخر من شهداء كربلاء الذين شهدت أمهاتهم استشهادهم بتلك الصورة المفجعة، أما أم علي الأكبر «ليلي» فلم تكن في كربلاء أثناء الواقعة رغم شيوخ خبر حضورها الواقعة.

وعون بن عبد الله بن جعفر، هو شهيد آخر من شهداء الطف الذين شهدت أمهاتهم مصرعهم بتلك الصورة الفجيعة، فأمه العقيلة زينب شهدت بعينها مصرع ولدها([10])، وهنا نشهد صورة رائعة توضح سمو التربية التي ربيت عليها الحوراء الجليلة زينب (س) فنحن لا نجد في أي من كتب المقاتل المفصلة، أن العقيلة زينب قد ذكرت ولدها بشيء سواء قبل استشهادها أو بعده وكأنها كانت ترى أن ذكرها ولدها بشيء يتنافى مع الأدب الرفيع، أي أنها كانت ترى هذه التضحية أقل من أن تذكر كفداء للإمام الحسين، في حين أن العقيلة زينب نفسها خرجت من الخيمة إثر مصرع علي الأكبر وهي تصرخ وأخياها وابن أخياها وهذا ما لم تفعله عند مصرع ولدها عون.

وشهيد آخر من أهل البيت(ع) لا أتذكر اسمه الآن، كان في العاشرة من عمره قد قتل أيضاً بتلك الصورة المؤلمة، يذكر أرباب المقاتل أن هذا الصبي، خرج من الخيمة بعد مصرع الإمام الحسين مبهوتاً مدهوشاً من تغير الأوضاع، وحينما كان يجبل النظر هنا وهناك في حيرة ودهشة جاءه رجل من معسكر الأعداء وذبحه وقطع رأسه وانتزع قرطين كانا في أذنيه وحدث ذلك على مرأى من والدته التي خرجت تبحث عنه.

وصبي آخر استشهد أيضاً يوم الطف بنفس الصورة وما أفجعها من شهادة، شهادة عبد الله بن الإمام الحسن المجتبي(ع) وهو صبي لم يتجاوز العاشرة وعندما توفي والده الإمام الحسن(ع) كان في رحم أمه أو طفلاً رضيعاً على أكثر تقدير، وهو لم ير والده على أي حال. لذلك فقد تربى وترعرع في رعاية عمه الحسين(ع) والذي أصبح بالنسبة له عمّاً وأباً في آن واحد، ولذلك كان يحبه كثيراً، في يوم عاشوراء خرج عبد الله من الخيمة رغم أن الإمام الحسين كان قد أمر عياله أن لا يخرج أي منهم من الخيام، وكان أمره(ع) مطاعاً، إلا أن هذا الصبي لم يطق الصبر على البقاء في الخيمة بعد أن سقط أبو عبد الله على الأرض وفقد القدرة على الحركة، لذلك خرج من الخيمة متوجهاً نحو عمه بعد أن أفلتت من يد عمته زينب التي أسرعت إلى منعه من الخروج، وصرخ «والله لا أفراق عمي»، ووصل إلى عمه وألقى بنفسه على صدره، - وسبحان الله ما أعظم صبر الحسين الذي ضم هذا الطفل إلى صدره - وفي غضون ذلك أغار أحد الأعداء على الحسين(ع) قاصداً طعنه بسيفه فصرخ به الطفل «يا ابن الخبيثة، أقتل عمي» فرفع الصبي يده ليمنع بها سيف هذا الوغد أن يصيب الإمام، فأصاب السيف يده فقطعها فصرخ الطفل «يا عماء أدركني». ضم الإمام ابن أخيه إلى صدره وقال له: «يا ابن أخي اصبر على ما نزل بك فإن الله يلحقك بأبائك الطاهرين الصالحين، برسول الله وعلي وحمة وجعفر والحسن».

اللهم نور قلوبنا بنور الإيمان واملأها حباً لك وحباً لأوليائك.

اللهم وزدنا إيماناً وثبت قلوبنا على دينك.

اللهم واشف مرضى المؤمنين شفاء عاجلاً وتفضل على أمواتنا بالمغفرة والرحمة.

اللهم وتقبل بفضلك أعمالنا وأعمال كل من يسعى بجهده وبما استطاع لإقامة مجالس العزاء على أبي عبد الله الحسين ويعظم شعائر الله ويبلغ أحكامك.

اللهم وارزقنا خير الدنيا والآخرة.

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

وصلى الله على محمد وآله الطاهرين

[2] معنى السياحة المنهي عنها هو أن يهيم الإنسان على وجهه في الأرض والذهاب للجبال والمناطق النائية للتعبد والاعتزال، وفي وسائل الشيعة للحر العاملي ج 11 ص 10 أن رجلاً أتى الرسول الأعظم (ص) - والرجل هو عثمان بن مظعون - قال: قلت لرسول الله (ص) إن نفسي تحدثني بالسياحة وأن ألحق بالجبال، فقال (ص):

(يا عثمان لا تفعل، فإن سياحة أمتي الغزو والجهاد). وفي مستدرک الوسائل للشيخ النوري ج 2 ص 245 - الطبعة الحجرية:

أن رجلاً أتى جبلاً ليعبد الله فيه فجاء به أهله إلى الرسول (ص) فنهاه عن ذلك وقال (ص):

(إن صبر المسلم في بعض مواطن الجهاد يوماً واحداً خير له من عبادة أربعين سنة).

[3] ولكننا لو نظرنا إلى قوله هذا من الزاوية العرفانية لوجدناه يتطلع إلى التخلص من عالم الماديات كي يخلق في أجواء السمو الروحاني، فهو يرمز إلى عالم الماديات بسجن الاسكندر وعالم تسامي الروح بملك سليمان.

[4] هو أحد كبار مجتهدي الشيعة، قد عاش في قم وعاصر آية الله السيد حسين البروجردي.

[5] حدث مرة أن زار الإمام الصادق (ع) أحد أصحابه في بيته، وكان يعيش في بيت صغير وقديم يضيق على زوجته وأطفاله وكان الإمام (ع) يعرف أن لهذا الرجل سعة من المال، والإسلام يؤكد أن من سعادة المرء سعة داره، ومن يستطع أن يهيئ داراً واسعة ولم يفعل فقد ظلم عياله، الإمام الصادق (ع) سأل الرجل عن سبب سكناه في هذه الدار الضيقة مع قدرته على شراء دار أكبر وأوسع لعياله، فأجاب الرجل: إنه في هذه الدار ولد، وفيها ولد أبوه وجده وعاشوا، وإنه لا يريد أن يترك دار آبائه وأجداده. فرد الإمام (ع) هذا المنطق بكل صراحة قائلاً: (إذا كان أبوك وجدك أحق منك فهل تريد أنت أن تدفع ثمن حمقهما؟!).

ثم أمره الإمام (ع) بنقل عياله إلى دار أوسع.

وفي كتاب وسائل الشيعة ج 4 ص 559 من الطبعة الإيرانية الحديثة، عن معمر بن خلاد قال: إن أبا الحسن (الإمام الكاظم (ع)) اشترى داراً وأمر مولى له أن يتحول إليها وقال (ع): إن منزلك ضيق. فقال معمر: قد أحدث هذه الدار أبي. فقال أبو الحسن (ع): إن كان أبوك أحق فهل ينبغي أن تكون مثله... - من المترجم -

[6] يجد في الأرض سعة: أي أن الأرض واسعة غير محدودة بالمنطقة التي يعيش فيها، ومراغم من الرغام وهو التراب اللين الناعم، وإرغام الأنف يعني: تعفيره بالتراب، وإرغام الأنف المستحب في الصلاة معناه أن يضع المصلي أنفه ويعفره بالتراب أو بما هو من التراب.

[7] وسر بلاغة البيان القرآني في سياق هذه الآيات هو أن آية المستضعفين تناقض أعذار المنحرفين بسبب فساد المجتمع وتدحضها، ولا يكتفي القرآن بهدم تلك الأعذار - وهنا سر البلاغة القرآنية - بل يعطي البديل الصحيح والموقف الشرعي تجاه ذلك الوضع، فيورد آيتي الثناء على المهاجر في سبيل الله ووقوع أجره على الله، وقبلها آية توضح فوائد الهجرة وإن المهاجر يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة.

[8] النص موجود ضمن رسالة أمير المؤمنين الإمام علي (ع) إلى واليه على البصرة عثمان بن حنيف، ج 4 ص 590، ط. بيروت دار الأندلس بشرح محمد عبده و (الرسالة: 45 صبحي الصالح).

[9] سورة البقرة؛ الآية: 30.

[10] لعبد الله بن جعفر زوج العقيلة زينب ولدان استشهدا كلاهما في واقعة الطف أحدهما عون وهو من زوجته زينب (س) والآخر من زوجة أخرى.

المحاضرة الثالثة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين بارئ الخلق أجمعين والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله وحببيه وصفيه وحافظ سره ومبلغ رسالاته سيدنا ونبينا ومولانا أبي القاسم محمد(ص) وآله الطيبين الطاهرين المعصومين.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، قال تعالى:

(وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ...) (النساء: 100).

من المواضيع التي اهتم بها القرآن الكريم كثيراً وحظيت باهتمام خاص في الفقه الإسلامي، هو موضوع الهجرة. والهجرة تقتصر - في اعتقاد معظمنا - على حادثة تاريخية خاصة وقعت في فجر الإسلام، وهي هجرة الرسول الأعظم(ص) وأصحابه من مكة إلى المدينة وبها كانت بداية التاريخ الهجري.

ولا شك بأن لهذه الحادثة أهمية كبرى ولها قيمة تاريخية كبرى ولها أكبر الأثر في تاريخ الإسلام وتطوره، ولكن سؤالنا هنا هو: «هل أن مصداق الهجرة ينحصر في هذه الحادثة؟! وهل أن جميع ما ذكره القرآن الكريم بشأن الهجرة واعتباره المهاجرين في درجة المجاهدين وذكره الهجرة مع الجهاد دائماً كقوله تعالى: (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ) (الأنفال: 74) هل أن كل ذلك يتعلق بتلك الحادثة التاريخية الخاصة، ولم يعد لها مصداق عملي بعد تلك الحادثة؟ هل أن هذا هو حال الهجرة، أم أنها مثل الإيمان والجهاد لا

يحددها زمان خاص ولا مكان خاص؟ لا شك في أن الهجرة هي كالجهاد والإيمان لا يمكن أن تنحصر مصدايقها بالعصر الأول للإسلام، وما أطلق عليه في ذلك العصر من وصف الهجرة هو كالجهاد في ذلك العصر فكلاهما من مصدايق الهجرة والجهاد وهما حكمان عامان ثابتان لا يختصان بعصر معين، إن الإمام علياً(ع) يتناول هذا المفهوم في كلماته المدونة في نهج البلاغة فيقول(ع) صراحة: «الهجرة على حد الأول»([1])، أي أن الهجرة لا تختص بزمان ولا مكان معينين بل إنه وكما أن النبي الأكرم(ص)، هاجر من مكة إلى المدينة إذن فواجب الآخرين أن يقتدوا به(ص)، وأن يهاجروا - إذا اقتضت الظروف الموضوعية ذلك طبعاً - ، واستناداً إلى النص المتقدم عن أمير المؤمنين(ع)، فنحن لا نستطيع القول بعدم وجود مصداق عملي للهجرة بعد عصر النبي الأكرم(ص).

والآن لتتعرف على معنى الهجرة ما هو؟. الهجرة تعني - كما تقدم - ترك الديار والأهل والأصدقاء والتغرب عن الأوطان من أجل الحفاظ على الإيمان والدين، وواضح من التعريف أن مفهوماً كهذا لا يمكن حصر مصدايقه في زمان ومكان معينين، وهذه هي وجهة نظر الإسلام تجاه مفهوم الهجرة، وطبيعي أن الهجرة تكون واجبة عند تحقق شروط معينة، وهذه الشروط يمكن استخلاصها من التعريف المتقدم لمفهوم الهجرة، فعندما يكون تعريف الهجرة هو ترك الأهل والديار من أجل حفظ الإيمان والدين من الضياع فهذا يعني أن

الهجرة تجب عندما يصبح ديننا وإيماننا في خطر، وعندما يصبح الخيار بين أمرين هما: إما فقدان الدين والإيمان، وإما ترك الديار والهجرة، أي أنه إما أن نختار البقاء في ديارنا ونتخلى بذلك عن ديننا وإيماننا، وإما أن نتخلى عن وطننا وديارنا وأهلينا ونتغرب من أجل إنقاذ ديننا، وفي هذه الظروف يوجب الإسلام على أتباعه الهجرة إنقاداً لدينهم من الضياع.

في القرآن الكريم آية تناقش عن «ظروف البيئة القاهرة» الذي يحتج به أكثرنا لتبرير الكثير من انحرافاتنا عن مبادئ الإسلام وأحكامه، فعندما نقول لهذا: لماذا ترتكب المعصية الفلانية؟ أو نقول لتلك: لماذا تتبرجين؟ فالجواب المتوقع من كليهما هو: إن ظروف مجتمعنا هي التي تفرض ذلك، وإذا قيل لذلك: لماذا تشارك في المجالس التي يرتكب فيها الحرام - والاشتراك محرم شرعاً - أو تسأله لماذا لا تتخرج مثلاً من الجلوس إلى موائد الخمر والجلوس إليها حرام حتى ولو كان لأجل تناول خبز حلال؟ فالجواب المتوقع عن مثل هذا التساؤل، هو أن ظروف المجتمع تجبرنا على ذلك، فماذا نفعل ومجتمعنا منحرف وقد تفشى فيه الفساد، نعم فالتحجج بالظروف القاهرة أصبح عذراً للكثير من الناس يبررون به أخطائهم وذنبوهم. وهذا عنر يرفضه الإسلام جملة وتفصيلاً، فالإسلام يحدد لنا موقفاً واضحاً وصريحاً تجاه المجتمع الفاسد فيؤكد أن التكليف الشرعي للفرد المسلم بالدرجة الأولى هو العمل من أجل تحويل ذلك المجتمع الفاسد إلى مجتمع مؤهل للعيش وفق النظرية الإسلامية، وإذا فرضنا أننا كنا نعيش في مجتمع فاسد بالدرجة التي يستحيل معها تحويله إلى مجتمع إسلامي، وأحسنا إن

بقاعنا فيه يترك آثاراً سلبية على ديننا ودين أبنائنا وعوائلنا وأجيالنا القادمة، فإذا كان الحال كذلك فالإسلام يحدد لنا موقفاً آخر هو الهجرة من هذا المجتمع والذهاب إلى مكان آخر نستطيع فيه الحفاظ على إيماننا وديننا.

ونلاحظ هنا أن الهجرة قد لا تستلزم الانتقال من مدينة إلى مدينة أو من بلد إلى آخر، بل إن الهجرة قد تصدق على الانتقال من منطقة إلى أخرى في نفس المدينة وهذا ما يمكن أن يحدث في المدن الكبرى - كطهران مثلاً - حيث تجد فيها بعض المناطق التي تتمتع بجو إسلامي يمكن لأطفالنا في أن يتربوا تربية إسلامية سليمة، كما تجد فيها مناطق أخرى لا تتمتع بالأجواء الإسلامية المطلوبة، فكثير من الأفراد الذين نشأوا في منطقة أو محلة تتوافر فيها الأجواء الإسلامية النقية، ثم انتقلوا إلى محلة أو منطقة أخرى من المدينة نفسها قد يواجهون فيها بفقدان أبسط مظاهر الحياة الإسلامية، فلا مسجد ولا مصلين ولا مجالس لتعليم القرآن والوعظ والإرشاد، بل ولا يسمع فيها اسم الله والإسلام أصلاً، وربما أكثر من ذلك، فقد تقع عينك في الصباح على رجل يخرج بسيارته وبصحبته كلبه المدلل، وتعلو من المذياع الموجود فيها أصوات الغناء واللعب واللهو.

ومن الممكن والحال هذه، أن الأجواء غير الإسلامية هذه، قد لا تؤثر على الكبار الذين تربوا في أجواء إسلامية واكتسبوا حصانة من الانحراف، أو إذا أثرت في هؤلاء كان أثرها طفيفاً، لكن ماذا سيكون مستوى تأثيرها على الأطفال الذين لم يتجاوز عمر أحدهم العامين مثلاً؟ هؤلاء سيفتحون أعينهم على أجواء ملوثة بالانحراف كهذه، لذلك فمن المؤكد أن مثل هؤلاء الأطفال لن يخرجوا من هذه الأجواء فتيّة مسلمين حقاً.

وهنا يطرح هذا السؤال: ما هو التكليف الشرعي الذي يحدده الإسلام لمثل هذه الحالة؟! الجواب هو: في البداية يجب السعي لتحويل تلك الأجواء إلى أجواء إسلامية، فمثلاً: إذا لم يكن في تلك المنطقة مسجد، فيجب العمل على إنشاء مسجد فيها، والمسجد وحده ليس كافياً بالطبع وإن كان وجوده مهماً إلا أنه يحتاج إلى أن تعقد فيه مجالس الوعظ والإرشاد ومجالس قراءة القرآن والأدعية وما إلى ذلك، ومن ينجز هذه المهمة فلن يكون قد أدى واجبه ولم يتخلف عنه وحسب بل وأصبح من الدعاة للإسلام وناشري مبادئه والمبلغين له، ولكن إذا كان من المستحيل إنجاز هذه المهمة، فماذا يكون واجبنا الشرعي؟! هنا يأمرنا الإسلام بالهجرة ويرفض أن نبقى في تلك الأجواء الفاسدة التي تؤثر تأثيراً سلبياً على إيماننا وإيمان أهلينا، والمنطق القرآني يرفض أن نعتذر لضياح ديننا في هذه الأجواء بعذر الظروف القاهرة للجو الذي نعيشه وهذا الموقف هو ما تحدده الآية القرآنية: (إِنَّ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا).

الآية الكريمة تتحدث عن تلك الطائفة من الناس التي تجد الملائكة صحائفهم سوداً مملوءة بالذنوب والمعاصي وظلم النفس، فتسألهم فيم كنتم؟ لماذا صارت صحائف أعمالكم سوداً بهذه الصورة المخجلة؟ فيرددون نفس الأعذار التي كانوا يرددونها في الدنيا، وتوهمون أنها تصلح للاعتذار «كنا مستضعفين في الأرض»، كنا نعيش في أجواء فاسدة، نفقر فيها إلى العلم والمعرفة، والعالم المعلم والمربي، فلم نستطع التعرف على الإسلام ومبادئه ولم يوجهنا أحد. هذه هي الأعذار التي يعتذرون بها، فهل تقبلها منهم ملائكة الله وتقول لهم: حسناً أنتم معذورون فلن يعذبكم الله على ما أسرفتم على أنفسكم، فالذنب ليس ذنبكم بل هو ذنب الأجواء المنحرفة التي عشتُم فيها؟! كلا ليس هذا هو المنطق الملائكي، بل إن الملائكة ترفض تلك الأعذار جميعاً وتدحضها وتتلو قول الله تعالى: (أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا). الذنب ذنبكم أنتم لأنكم سجنتم أنفسكم في تلك الأجواء الفاسدة، فليست جميع أرجاء الدنيا مثل الأجواء التي عشتُم فيها، بل كانت في الأرض مناطق تتمتع بأجواء طيبة صالحة، فلماذا لم تهاجروا إليها؟!

وحصيلة ما تقدم هي أن الإسلام يولي موضوع الهجرة - بمعنى ترك الأهل والديار المحببة للنفس، من أجل حفظ الدين والإيمان من الضياع - أهمية خاصة، ويعتبر هذا الحكم حكماً ثابتاً وركناً من أركانه الأساس ذلك الركن الذي لا يحده زمان ولا مكان، فلم ينسخ ولم يختص بمهاجري الصدر الأول للإسلام.

لكن البعض تطرف في فهم معنى الهجرة هذا، الذي تحدثت عنه الآية الكريمة المتقدمة، وطرح له تفسيراً خاطئاً يناقض ما تهدف إليه الآية، فقال: إن الآية تقول: (وَمَنْ يُخْرِجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ)، أي أنها ذكرت المكان الذي تبدأ منه الهجرة ولم تذكر المكان الذي يقصده المهاجر بل ذكرت «الله ورسوله» مقصداً للمهاجر وهو مقصد معنوي لا مادي أي يتعلق بقلب الإنسان وروحه لا جسده إذن تكون النتيجة أن الهجرة المقصودة من الآية هي هجرة معنوية تتعلق بقلب الإنسان، وتعني أن يطوي الإنسان درجات الإخلاص والكمال في سيره نحو الله عز وجل والتقرب منه تعالى، وهذه الهجرة،

لا تستلزم ترك الديار والأهل، بل أن الإنسان يستطيع أن يحقق مصداقها وهو جالس في بيته الدافئ، وذلك بأن يجاهد نفسه ويهذبها ويتقرب إلى الله عز وجل بتطهير باطنه وبالالتزام بالصلاة والصيام والدعاء وباقي العبادات التي تقربه من الله سبحانه. وإذا طرح السؤال عن الهدف من هذه الهجرة كان الجواب هو الله والقرب منه، ولأجله يهذب الإنسان نفسه ويجاهدها بالدعاء والعبادة والذكر لا بالسفر وقطع المسافات وترك الديار، إذن فالآية تقصد من البيت الذي تدعو العبد لأن يهجره ليس البيت بالمعنى المتعارف عليه، بل إن ما تقصده هو بين النفس وحدود الأنا، فيكون تفسير الآية على الوجه التالي: إن كل من يخرج من أسر نفسه وحدود الأنا ويهاجر نحو الله فقد وقع أجره على الله، وهذا بالطبع فهم خاطئ وتفسير قاصر للآية الكريمة.

فالقرآن الكريم ذكر في هذه الآية كلتا الهجرتين معاً، وهذا هو نموذج من نماذج الإعجاز في البلاغة القرآنية، فالببيت الذي يذكره القرآن مبدأ للهجرة هو نفس البيت المتعارف عليه والمبني من الطين أو الحجر، لكن القرآن يقول ما معناه: يا من تهاجر عن ديارك ووطنك - سواء كان من محلة إلى أخرى أو من مدينة إلى أخرى أو من بلد إلى آخر - عليك أن تعرف الهدف الذي تهاجر من أجله، هذا الهدف يجب أن يكون هو الله عز وجل والله وحده لا غير، فلتكن هجرتك لله وحده، وإلا فلن تكون لها أية قيمة معنوية حتى لو هاجرت من أقصى الدنيا إلى أقصاها، وأعرضت عن ديارك وأهلك وعن كل ما تملك ورضيت بالعري والفقر، وهذا هو المنطق القرآني الذي يؤكد الرسول الأكرم (ص) بقوله: «من كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى مال يناله أو امرأة يصيبها، فهجرته إلى ما هاجر إليه» (صحيح البخاري ج 1 ص 22).

فالرسول (ص) يقول: أنا أريد المهاجر ولكن أي مهاجر؟! أريد المهاجر المخلص لله في هجرته، فلست أريد أن تأتي مجموعة من الناس من مكة أو من مدن أخرى إلى دار الهجرة «المدينة المنورة» بل أريد منهم أن تكون هجرتهم خالصة لله وفي الله وحده، وإلا فلن تكون لها أي قيمة، وهذا الحكم ينطبق أيضاً على مفهوم الجهاد الإسلامي أيضاً، فليس المهم في الجهاد الإسلامي أن يشهر المرء سيفه ويحارب أعداء الإسلام، بل المهم أن يكون ذلك من أجل الله وطلباً لرضاه تعالى، ومن الممكن أن يوجد في صفوف المسلمين مقاتل قد يبدو أكثر حماساً وبطولة من الآخرين وأكثر تعرضاً للأذى والمصاعب، ولكن لو فتحت قلبه واطلعت على ما فيه لوجدت أن عمله هذا هو من أجل السمعة والفخر وكي يشيع اسمه بين الناس، وتطبع صورته وتوزع، ويذكره التاريخ بالتثناء، وما شابه ذلك من الأهداف المادية، والتصورات المنحرفة كأن يفكر البعض بأن من المحتمل أن لا نقتل في الحرب، وبذلك سنعد من الأبطال وهذا سيفتح أمامنا الطريق نحو الجاه والثراء الواسع والزواج من العديد من النساء الحسان، وبالتالي نجمع الدنيا والآخرة معاً، فنحن قد ذهبنا إلى الحرب وشاركنا في الجهاد في سبيل الله، وفي نفس الوقت حصلنا على الدنيا أيضاً، هذه الصور كلها لا تعتبر جهاداً في سبيل الله، وبالطبع قد يحصل الإنسان على الدنيا بالجهاد في سبيل الله ولكن بشرط أن لا تكون الدنيا هي دافعه نحو الجهاد. ففي معركة أحد أو معركة أخرى، ذكر لرسول الله (ص) رجل من أصحابه (يقال له قزمان) بحسن معونته لإخوانه، وأثنى عليه بأنه أبلې بلاء حسناً وقاتل قتالاً شديداً، فلم يعن الرسول (ص) بقوله وكان إذا ذكر عنده قال (ص) هو من أهل النار ثم جاءوا إلى الرسول (ص) فقالوا يا رسول الله، لقد استشهد قزمان، فقال (ص): يفعل الله ما يشاء، ثم جاءوا إلى الرسول (ص) بعد ذلك وقالوا: إن قزمان قتل نفسه «انتحر» فقال (ص): أشهد أنني رسول الله، وكان قزمان قد قاتل قتالاً شديداً وقتل من المشركين ستة أو سبعة فاتخنه الجراح، فاحتمل إلى دور بني ظفر، فقال له المسلمون: أبشر يا قزمان أبليت اليوم بلاء حسناً.

فقال: «بم تبشروني فوالله ما قاتلت إلا عن أحساب قومي، ولولا ذلك ما قاتلت فلما اشتدت عليه الجراح جاء إلى كنانته - الحقيبة التي توضع فيها السهام - فأخذ منها سهماً فقتل به نفسه» (الرواية من سيرة ابن هشام ج 2 ص 88).

وبعد أن سمع الناس بما جرى لقزمان، فهموا سر عدم اهتمام الرسول (ص) به، ولماذا لم يعياً بالمدح الذي كانوا يكيلونه لهذا الرجل، وعرفوا أن الجهاد يجب أن يكون لله والله فقط، وأن الهجرة يجب أن تكون لله والله فقط، أي أن الهجرة «بمعنى الهجرة من الديار والتغرب» يجب أن تكون توأم السفر إلى الله والتقرب إليه عز وجل، أي أن يكون الإنسان مهاجراً وعارفاً وسالكا إلى الله في آن واحد فكلتا الهجرتين يريد هما الإسلام، والآية الكريمة تذكرهما كلتيهما (وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ).

هذه الآية تتحدث عن كلتا الهجرتين وتريدهما معاً، فهي تريد أن يهاجر الإنسان هجرة بجمسه وأخرى بروحه، فجمسه يهاجر من بلد إلى آخر وروحه تهاجر من مرحلة الأنانية وعبادة الأنا إلى مرحلة الإخلاص لله تعالى، ومهاجر كهذا

هو الذي يعده الله تعالى بالحسنى فيقول «فقد وقع أجره على الله». وما أبلغ هذا الوصف! فهو يعني أن أجر هذا المهاجر أعظم من أن تتركه عقولنا وأكبر من أن تصوره وتوضح مقداره الكلمات والحروف.

وقد ورد في تفسير هذه الآية، تعميم لها مناسب جداً ومنسجم مع روحها وربما ورد هذا التعميم في حديث شريف لا يحضرني الآن، والتعميم هذا يبين أن أفضل نموذج للمهاجر في سبيل الله الذي تذكره الآية الكريمة، هو طالب العلم، الذي يهجر وطنه وأهله ويذهب إلى بلد آخر لتعلم العلوم الإسلامية، وهدفه من ذلك هو إرشاد الناس وهدايتهم وإحياء الإيمان ونشر أحكام الله لا الشهرة والسمعة والفخر والتعالي على الآخرين والحصول على الجاه والمال. طالب علم كهذا هو مهاجر في سبيل الله ما دام هدفه من الهجرة وطلب العلم والمعرفة، هو الله عز وجل، ومن أجل سد حاجة الإسلام والمسلمين. ولا يقتصر هذا الحكم على من يهاجر طلباً للعلوم الدينية، بل ويشمل أيضاً من يهاجر لطلب العلوم الأخرى «كالطب والهندسة وغيرهما» شريطة أن يكون هدفه من ذلك هو أداء الواجب الشرعي الكفائي، فمثلاً يهاجر لتعلم الطب إحساساً منه بحاجة المجتمع إلى أطباء مسلمين، وأداء الواجب الكفائي المتعين على المسلمين لسد هذا النقص، فطالب كهذا يعتبر مهاجراً في سبيل الله إذا كان هذا هو هدفه لا جمع المال أو الحصول على لقب دكتور والزهو والتعالي بهذا اللقب، (وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ)، وهؤلاء إذا أدركهم الموت وهم في دار الهجرة فقد وقع أجرهم على الله كما تنص على ذلك الآية الكريمة وهم الإخوة الصغار الشهداء، لأن المهاجر هو الأخ الصغير للمجاهد.

وكما أشرنا فيما سبق، فالقرآن الكريم يقرن عادة المهاجر بالمجاهد ويذكرهما معاً، والآن نطرح السؤال التالي: «متى يصدق على المرء كلا الوصفين معاً، أي وصفا المهاجر والمجاهد؟» والجواب: إن ذلك يصدق على من يهاجر في سبيل الله ويكون هدفه من الهجرة هو إنقاذ الدين وإيمان المجتمع ككل وبذلك تنطبق عليه الآية الكريمة (وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ).

وكذلك تنطبق عليه جميع الآيات التي تتحدث عن الجهاد مثل قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ).

والإمام الحسين(ع) هو أوضح المصاديق للمهاجر المجاهد، فهو(ع) قد هجر بيته ووطنه وجاهد في الله حق جهاده، إنقاذاً للإسلام من التحريف ولإيمان الأمة الإسلامية من الضياع والاندراس، وموسى بن عمران(ع) كان مهاجراً في سبيل الله أيضاً إذ ترك وطنه مصر وذهب إلى مدين، لكنه كان في ذلك مهاجراً وحسب، وكذلك كان حال إبراهيم الخليل(ع) (إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدُهُدِينَ) إذ أنه(ع) ترك وطنه برغبته وهاجر، أما الذي امتاز به سيد الشهداء(ع) فهو أنه كان في هجرته مهاجراً ومجاهداً في آن واحد.

إن مهاجري صدر الإسلام، كانوا مهاجرين وحسب ولم يكونوا مجاهدين قبل صدور الأمر الإلهي بالجهاد، وبعد صدور الأمر الإلهي هذا انطبق على من جاهد منهم وصف المجاهدين أيضاً، أما الذي كان منذ بداية هجرته مهاجراً ومجاهداً في آن واحد فهو الإمام الحسين(ع) وقد وقع أجره على الله.

وفي عالم الرؤيا أخبر الرسول الأعظم(ص) سبطه الحسين(ع) أن الله تعالى أعد له درجة لن ينالها إلا بالشهادة قتلاً في سبيله، وهذا ما كان. «إن لك منزلة عند الله لا تنالها إلا بالشهادة».

الإمام الحسين(ع) قضى ثلاثة وعشرين يوماً في الهجرة - من اليوم الذي خرج فيه من مكة في الثامن من ذي الحجة إلى يوم وصوله أرض كربلاء وحطه رحاله فيها - ، وعند خروجه من مكة خطب في الناس خطبة أشار فيها إلى هجرته وجهاده وذكرهما معاً فقال(ع): «خُط الموت على ولد آدم مَخَط القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي، اشتياق يعقوب إلى يوسف».

أبو الأحرار(ع) يقول ما معناه: إني لا أخاف الموت، والشهادة في سبيل الله والإيمان فخر للإنسان وهي تاج يوضع على رأس الرجل زينة له كما أن القلادة زينة للفتاة، وإني لمشتاق إلى أسلافي الذين سبقوني في هذا الطريق كاشتياق يعقوب إلى ولده الحبيب يوسف، ثم يستطرد سيد الشهداء ليخبر الناس بمصرعه وكيفية شهادته فيقول(ع):

«وخير لي مصرع أنا لأقيه، وكأني بأوصالي تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلا»، ويتحدث أبو الأحرار - بعد أن يشرح صورة مصرعه - عن ذوبانه وباقي أهل بيت النبي، في الله عز وجل بحيث أصبح حبهم حب الله وغضبهم غضب الله ورضاهم رضا الله، فيقول (ع): «رضا الله رضانا أهل البيت نصبر على بلانه ويوفينا أجور الصابرين» فما أحبه عز وجل أحببناه، وما رضىه لنا رضىنا به، إن أحب لنا السلامة والعافية أحببناها، وإن أراد لنا البلاء والمرض، أحببناها، وإن أحب لنا الصمت، أحببناه، وإن أحب لنا الكلام والحديث أحببناه وإن أحب لنا السكون أحببناه وإن أحب لنا التحرك والقيام أحببناها.

وبعد أن تحدث عن جهاده وشهادته ختم خطبته بإعلان الهجرة في سبيل الله تعالى ودعا من يريد الله إلى اللحق به والهجرة معه (ع) شريطة أن يكون مستعداً للجهاد وإهداء قلبه ودمه لله عز وجل وأن يكون حاله كحال الإمام الحسين (ع): «فمن كان باذلاً فينا مهجته موطناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا، فإني راحل مصباحاً إن شاء الله».

صحبت الإمام الحسين في البداية جموع كثيرة من الناس، كان لا يزال فيهم من يظن أن في خطبة الحسين (ع) بعض المبالغة بشأن مصيره عليه السلام ومصير أصحابه، وإن هناك أملاً في النجاة، كما التحقت به (ع) في الطريق جموع أخرى، أما الإمام (ع) الذي اشتراط على من يصحبه أن يكون: «باذلاً فينا مهجته موطناً على لقاء الله نفسه»، فإنه لم يرد أن يكون في صحبه بعض الضعاف غير المستعدين للشهادة في سبيل الله، لذلك كان يخطب بالناس في مواقع متعددة من الطريق مؤكداً لهم المصير الذي سيلقاه وصحبه مستهدفاً من ذلك غربلتهم وإخراج غير الأكفاء لتلك المهمة الصعبة، ولكي لا يبقى معه إلا الذي امتحن الله قلبه للإيمان فكان مخلصاً متفانياً لله ذائباً في إرادته تعالى. وفي النهاية لم يبق معه (ع) إلا الأنصار المخلصون الذين شهد لهم عليه السلام نفسه بالبر والوفاء فقال: «لا أعلم أصحاباً أولى ولا خيراً من أصحابي» وهذه الشهادة تعني أن الإمام (ع) يخاطب أصحابه بأن لو خیرت بينكم وبين أصحاب الرسول (ص) في بدر لاخترتكم عليهم، ولو خیرت بينكم وبين أصحاب علي (ع) في صفين لاخترتكم عليهم، فأنتم سادة الشهداء وتاج رؤوس جميع الشهداء.

وفي ليلة العاشر من المحرم أذن الإمام الحسين (ع) لأصحابه أن ينصرفوا عنه ويتخذوا الليل جنة، وخاطبهم قائلاً: «ألا وإني أظن يومنا من هؤلاء غداً وإني أذنت لكم، فانطلقوا جميعاً في حل ليس عليكم مني ذمام، وهذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً، وليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي، فجزاكم الله جميعاً خيراً، وتفرقوا في سوادكم ومدانكم فإن القوم إنما يطلبونني، ولو أصابوني لأذهلوا عن طلب غيري، حسبكم من القتل بمسلم، أذهبوا قد أذنت لكم». وكان هذا آخر اختبار امتحن به الإمام (ع) صدق أصحابه وإخلاصهم، فهو قد أحلهم من بيعته - أي أسقط عنهم التكليف الشرعي بوجوب نصرته - وطأنهم من العدو الذي لو أصابه هو (ع) وهو ما يريده العدو لذهل عن أصحابه؛ فماذا كان جواب أولئك الأنصار؟! لقد رفضوا جميعاً ترك الحسين وأعلنوا إصرارهم جميعاً على الموت دونه وكان أول من أعلن الموقف الوفي والشجاع أخو أبو الفضل العباس الذي قال: «لا أرانا الله ذلك أبداً» فما أعظم السرور الذي أدخله على قلب الحسين (ع) جواب أخيه وباقي الأنصار! إذ رآهم يشاركونه الهدف والتفكير والعقيدة والعزم، وعندما رأى الحسين (ع) هذا الموقف الصلب من أصحابه شرع في تبیان ما سيجري عليهم غداً فقال عليه السلام: «إني غداً أقتل وكلمكم تقتلون معي ولن يبقى منكم أحد حتى القاسم وعبد الله الرضيع».

أبو عبد الله الحسين (ع) منح أصحابه يوم العاشر من المحرم وساماً وفخراً وشهادة وبقي ذكرهما خالداً على مر التاريخ، ففي تلك اللحظات الأخيرة من واقعة الطف ومن حياته (ع) وبعد أن استشهد جميع أنصاره وأهل بيته ولم يبق من رجل إلا زين العابدين وهو غليل يكابد آلام المرض، في تلك اللحظات والإمام الحسين (ع) وحيد بين كثرة الأعداء، واقف يدير البصر هنا وهناك فلا يرى من ناصر ولا معين، لا يرى إلا الأجساد المتناثرة هنا وهناك على الثرى، في تلك اللحظات قال الإمام (ع) جملة مفادها هو: إني لا أرى على هذه الأرض حياً سوى تلك الأجساد المقطعة إرباً إرباً. مشيراً إلى أجساد أصحابه!! هؤلاء الذين تتناثر أجسادهم على الثرى يراهم سبط النبي هم وهم فقط الأحياء الذين يمكن أن يستصرهم ويستصرخهم ويطلب العون منهم والغوث، فمن هؤلاء الذين يعتبرهم الحسين (ع) لوحدهم الأحياء دون غيرهم؟!!

هؤلاء هم أنصاره الذين كانت أوصالهم تتناثر على صعيد كربلاء، ورغم ذلك يراهم الحسين (ع) أحياء فيستصرخهم ويقول: «يا أبطال الصفا ويا فرسان الهيجاء قوموا عن نومتم بني الكرام، وادفعوا عن حرم الرسول الطغاة اللنام».

أبو عبد الله المظلوم الغريب يستنهض تلك الأجساد ويدعوها للقيام والذب عن حرم الرسول فقد هجم عليها أهل الغدر واللؤم والكفر... ثم يجيب الإمام عليه السلام نيابة عنهم معتذراً لهم، فأنى لهم الجواب، وقد فصل بين رؤوسهم وأجسادهم.

ولا حول ولا قوة بالله العلي العظيم

وصلّى الله على محمد وآله الطاهرين

([1]) ما وجدته في نهج البلاغة هو قوله (ع): (الهجرة قائمة على حدها الأول) (نهج البلاغة الخطبة/ 189، صبحي الصالح).

(المصحح).